
سلسلة
آفاق عالمية
76
الهيئة العامة لقصور الثقافة
http://arabicivilization2.blogspot.com/
Amly
الغجرية
ثربانتس
ترجمة: د. على البمبى

الغجريـــة

تأليف: ثربانتس

ترجمة: د. على البمبى



- الغجرية
- ترجمة: د. على البمبى
- الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
144ص. 13,5 x 19,5 سم

- تصميم الغلاف: أحمد اللباد
- المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال
- رقم الإيداع: ٢٦٣٤/ ٢٠٠٩
- الترقيم الدولى: 978-977-479-081-2
- المراسلات :

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)

- الطباعة والتنفيذ :

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

76

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

الغجريـــة

تقديم المترجم

على الرغم من أن «ثربانتس» يتربع فوق عرض الأدب الأسبانى بلا منازع، يعتبر أحد القمم الشامخة فى الآداب العالمية، ولا يختلف اثنان على عبقريته الفذة فى فن القص إلا أنه يكاد يكون مجهولاً فى أدبنا العربى رغم مرور زهاء أربعة قرون على وفاته..لقد كانت ترجمة الدكتور عبد العزيز الأهوانى للجزء الأول من «دون كيخوته» (المنشورة منذ حوالى خمسين عامًا فى سلسلة «الألف كتاب» الرائدة) هى المحاولة الأولى لتعريف القارئ العربى بهذا الكاتب العملاق، وبعد ترجمة الأهوانى الرائعة جفت الأقلام وطويت الصحف، إذ لم يجرؤ مغامر آخر على سبر أغوار عالم ثربانتس الخصب، المحفوف بالعقبات والأخطار، للتنقيب عن كنوزه واستخراج نفائسه.. ونقول «مغامراً» لأن هذا العالم تكتنفه صعوبات جمة حار فى تفسيرها الشراح ولم يهتدوا إلى مغزى الكثير منها.

ولاتقف هذه الصعوبات عند حد اختلاف عصر المؤلف أو المناخ الثقافى والسياسى والاجتماعى الذى عاش فيه، بل تمتد لتشمل أسلوبه المعقد وطبيعة أداة التعبير المستخدمة آنذاك، فلقد شهدت اللغة الأسبانية تطوراً ملموساً خلال تلك الحقبة الطويلة التى طوى فيها النسيان عدداً لا بأس به من الألفاظ والمصطلحات، وتغيرت فيها مدلولات عدد آخر لا يحصى من المفردات، ناهيك عن التراكيب اللغوية وشكل الكتابة والقواعد التى تحكم بناء الجمل، هذا بالإضافة إلى الأسلوب المتفرد للكاتب وتشبعه بالثقافة اليونانية واللاتينية، وإلى استخدامه للكثير من الاصطلاحات الكنسية والأحاجى اللغوية والتعابير المجازية... إلخ.

ومن هنا يتبين أن اقتحام مثل هذه النصوص ـ لاسيما إذا كانت لعبقرى مثل ثربانتس ـ أشبه بتسلق جبل وعر غامض، حاد وسامق ، تحتاج كل خطوة فيه إلى الاستكشاف المستمر والحرص الدائم واليقظة التامة، لأن زلة واحدة للقدم تعنى السقوط من حالق.. ولعلنا بهذه الكلمات القصار نكون قد أشرنا ـ ولو من بعيد ـ إلى سر انصراف المترجمين العرب عن ثربانتس رغم أن الأسباب التى تجعله جديراً بالترجمة تفوق الحصر، ومنها:

أن كتاباته تضم ألفاظًا عربية الأصل وأحاديث عن المسلمين ودينهم وبعض عاداتهم، وأنه ينطق أبطاله بأمثال عامية وحكم ومواعظ ليست بعيدة عن تراثنا بل إن لتراثنا أثراً كبيراً فى إذاعتها بين أهل أسبانيا، ولقدرة أعماله على الإيحاء وإثارة عواطف قرائها

على اختلاف عصورهم وأوطانهم وحظوظهم من الثقافة، ولأن أعماله تحوى بين جنبيها فزعة إنسانية تجعلها تتجاوز حدود الموطن الأسبانى وحدود عصرها لتصبح مشاعًا بين البشر جميعًا فى كل عصر ومِصر، ولأننا نستطيع من خلال كتاباته(التى تتسم بالواقعية المضخمة بالمثالية) التعرف على قسط كبير من ملامح الحضارة الغربية فى ذلك الحين (والإمبراطورية الأسبانية كانت الممثل الوحيد لها آنذاك) وعلى العلاقة الجدلية - أو التصادمية، بمعنى أصح - بينها وبين الشرق الإسلامى ممثلاً فى الإمبراطورية العثمانية ..إلخ.

المؤلف وعصره:

إذا أردنا الاقتراب من عالم ثربانتس الأدبى وفهم سر طيران إبداعه بجناحى الواقعية والمثالية فلا مفر من التعرف على حياته وعلى العصر الذى كان يعيش فيه، لأن بين ثلاثتهم ارتباطًا وثيقًا.

إن حياة ثربانتس تشبه إلى حد كبير حياة بطله «دون كيخوته» مثيرة للأسى ومفعمة بالنوازل والحادثات، تحلق فى سماء الفروسية المترعة بالمثاليات ، لكنها سرعان ما تصطدم بأرض الواقع المخيبة للآمال.

ولد ميجيل دى ثربانتس سابدرا فى قلعة هنارس أو قلعة النهر Alcalá de He nares عام ١٥٤٧م، وكان الابن الرابع من سبعة أبناء لأسرة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى ، كان أبوه «رودريجو ثربانتس» طبيبا جراحًا، وكان رزقه من مهنته ضئيلاً بحيث اضطره إلى الرحيل من بلد إلى بلد سعيًا وراء القوت بما لم يتح لابنه

استقراراً يمكنه من الدراسة المنتظمة ، وإنما هى فترات متفاوتة قضاها فى أماكن يختلف فيها بين بلد الوليد وبين الآباء اليسوعيين فى أشبيلية أو تحت إشراف أستاذ له فى مدريد أو خلال فترة قصيرة فى جامعة شلمنقة.

وفى سنة ١٥٦٩ (أى وهو فى الثانية والعشرين من العمر) بدأت - مع رحيله فى حاشية الكاردينال «خوليو أكوابيبا» إلى إيطاليا - صفحة جديدة من حياته مترعة بالبطولات ومعبَّقة بالمثاليات، التحق بعد وصوله إلى إيطاليا بالجندية، وهى مهنة كان لها شرف وشأن عظيمان فى عصره، وفى سنة ١٥٧١ اشترك - من على ظهر سفينة لاماركيسا - فى معركة «ليبانتو» الشهيرة ضد الأسطول التركى الذى لاقى هزيمة منكرة على يد نظيره الأسبانى . وقد جرح فى تلك المعركة وأصيبت ذراعه اليسرى بحيث تعطلت عن الحركة - وإن لم تقطع - طوال حياته بعدها، وكان دائم الفخر بهذه الإصابة ويعتبرها وساماً رفيعاً وشرفاً عظيماً فى سبيل مجد أسبانيا والمسيحية ، ويقال إنه كان مريضاً وبه حمى ومع ذلك أبى إلا المشاركة فى القتال طلباً للموت فى سبيل الدين والوطن، لكن هذه الإصابة لم تقعده عن المشاركة فى حملات حربية أخرى فى نفارين وتونس وباليرمو.

عاد بعد ذلك إلى إيطاليا حيث أتقن لغتها واطَّلع على كبار كتابها وتشبع بأجواء نهضتها وزار مدنها الرئيسية (وقد وصف هذه المدن وصفاً دقيقاً فى العديد من قصص المجموعة التى بين أيدينا) وبعد زيارته للمدن الإيطالية الهامة أبحر من نابولى (عام ١٥٧٥) عائداً

إلى أسبانيا، وكان يحمل توصيات مكتوبة من شخصيات أسبانية كبيرة فى إيطاليا يأمل من ورائها أن يلقى فى بلاده خيراً عميماً، ولكن القراصنة من الأتراك هاجموا سفينته فى عرض البحر وأسروه - هو ومن معه - ثم حملوهم إلى الجزائر، وهكذا أصبحت التوصيات التى كان يحملها مصدر شر له إذ غالى فى فديته آسروه، ولما لم يتمكن أهله الفقراء من افتدائه ظل فى أسره أو استرقاقه لمدة خمس سنوات عانى فيها الكثير من الأهوال وتعرض للموت نتيجة لمحاولته الهرب أربع مرات واعترافه فى كل مرة بالتخطيط للفرار، متحملاً بذلك المسئولية عن زملائه. وقبل قليل من ترحيله إلى القسطنطينية افتدته إحدى الجمعيات الخيرية المسيحية Los Padres Trinitari-osليعود إلى وطنه وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر.

وإلى هنا تنتهى المرحلة البطولية من حياته لتبدأ أخرى مليئة بالأشواك إذ لم يفده الماضى المشرف بشىء، ولم تفلح التوصيات ولا الإصابات الظاهرة والخفية، وما لبث أن وجد نفسه متعطلاً خالياً من العمل فقيراً، يطرق الأبواب فلا تفتح له، ولم يبق أمامه إلا القلم يريد أن يعيش منه، لكن شق القلم - كما يقول كُتابنا القدماء - أضيق من أن يسمح بالثراء.

وبعد فك إساره استقر فى مدريد ثم تزوج (عام ١٥٨٤) بشابة من إحدى القرى تصغره بثمانية عشر عاماً كانت بمثابة هم جديد يضاف إلى همومه الثقال، وفى العام التالى لزواجه نشر باكورة إبداعه القصصى «لاجالاتيا» لكنها لم تلق رواجاً، ولم يظفر من

ورائها بالعائد المادى المنشود... وبعد سعى طويل، وجد وظيفة خاملة بأجر زهيد تتمثل فى جمع القمح والأقوات للأسطول الأسبانى، وقد اقتضت مهام وظيفته (محصلاً) التنقل بين مدن الأندلس المختلفة، كما تسببت فى دخوله سجن أشبيلية مرتين لأخطاء نسبت إليه فى تأديته لعمله وإن كان قد تبين فيما بعد براءته منها، وبعد إعفائه من هذه الوظيفة النكداء رحل فى سنة ١٦٠٣ إلى بلد الوليد (وكانت العاصمة وقتذاك) ، وهناك لاحقه السجن للمرة الثالثة للعثور على رجل مقتول أمام مسكنه ، لكنه لم يستمر فى الحبس طويلاً لثبوت براءته مما دار حوله من شبهات، ومن بلد الوليد شد الرحال مرة أخرى إلى مدريد ليقضى فيها بقية حياته وينشر الجزء الأول من «دون كيخوته» (عام ١٦٠٥) ، ويقال إنه حاول السفر مرة ثانية إلى إيطاليا بصحبة «كونت دى ليموس» لكن رغبته لم تتحقق، كما باءت بالفشل أيضًا محاولة أخرى له للذهاب إلى العالم الجديد (وقد أصابه رفض السلطات الأسبانية لسفره إلى العالم الجديد - والذى كان مباحًا للبرِّ والفاجر - بحزن عميق وأسى عميم).

وفى السنوات الباقية من عمره توالت أعماله الإبداعية ما بين شعر وقصة ومسرح. ورغم الشهرة العريضة التى نالها بعد صدور الجزء الأول من «دون كيخوته» فإن آلامه لم تنته بسبب المتاعب المادية والعائلية ولحسد أبناء مهنته وكيدهم له، وحسبنا أن نعلم أن واحدًا من هؤلاء المعاصرين له قد أخرج قصة جعلها الجزء الثانى من «دون كيخوته» وصاحب الجزء الأول مازال حيا يرزق، وقد أدى

هذا الاجتراء الفاجر إلى إسراع كاتبنا بإخراج الجزء الثانى الحقيقى.

وإذا قارنا حياة ثربانتس بحياة المشاهير من معاصريه (أمثال: كيبيدو، ولوبى دى بيجا، وكالدرون دى لابركا) يتملكنا الأسى لما عاناه من بؤس وحرمان فى سنى نضجه ، ولما تعرض له من أهوال ومحن فى ريعان شبابه، صحيح أنه اكتسب شهرة فى أخريات حياته، لكنها لم تخفف من عوزه، ولم تضعه فى المكانة التى يستحقها بين أدباء عصره، وحسبنا فى هذا المقام الإشارة إلى سخرية «لوبى دى بيجا» القاسية منه حين قال: لا يوجد بين الشعراء من هو أسوأ من ثربانتس ، ولا من بين الحمقى أحمق ممن يثنى على «دون كيخوته» أو إلى هذا التشفى الواضح الذى ورد على لسان آخر: إذا كان ثربانتس يكتب من أجل كسب لقمة العيش فالأفضل أن يستمر فقيراً هكذا.

ورغم هذه السخريات والحظ المعاند لم تلن قناة كاتبنا ولم يخفت وهج إبداعه (بفضل روحه الوثابة وثقته فى موهبته واعتداده الشديد بالنفس وتفاؤله) وظل يكتب حتى وافته المنية عام ١٦١٦م.

لقد عابه معاصروه لأنه لم يحصل على شهادة دراسية، ومع هذا فإن الدراسة المتأنية لأعماله تميط اللثام عن عمق ثقافته وقراءته الواعية للتراث الأسبانى ولإنتاج مؤلف عصر النهضة الكبار، كما تبرهن على مطابقة «أيديولوجيته» للروح السائدة فى القرن السادس عشر، وخير دليل على ما تقدم إشاراته المستمرة إلى كل من أرسطو

وأفلاطون وهوراسيو و«أيورستو» و«ليون إيبريو» فضلاً عن الكثيرين من الكتاب الأسبان، وعلى هذا فإن خلو سيرته الذاتية من شهادة مدرسية لا يعيبه فى شيء لأنه ـ كما يقول المؤرخ والناقد الفذ «أميريكو كاسترو» ـ : لم يكن مثل جاليليو أو ديكارت بل عبقريا من معدن آخر، استطاع ـ بوعى وإدراك عميقين ـ هضم المكونات الأساسية لعصره واتخاذها متكأ لصوغ أعماله الإبداعية».

وإذا كانت حياة ثربانتس موزعة بين شباب مفعم بالبطولة والمثاليات وبين نضج وهرم مترعين بالانتكاسات وخيبة الآمال فإن القرن السادس عشر الذى قضى فيه جلَّ عمره قد بدأ بجملة انتصارات وانتهى بعدة هزائم وانكسارات.

لقد كانت أسبانيا حتى أواخر القرن الخامس عشر تتألف من ممالك متجاورة متنافرة، وسادها التفرق السياسى والدينى واللغوى ما يقرب من ثمانية قرون(وهى فترة الوجود العربى على أرضها) وفى الربع الأخير من هذا القرن شهدت أسبانيا جملة من الأحداث غيرت وجهها التاريخى:

ففى عام ١٤٧٤م ارتبطت مملكتا «رغون» Aragón وقشتالة Castilla بالزواج الذى انعقد بين ملك الأولى (فرناندو) وبين ملكة الثانية (إيسابيل) ، وهما اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكيين، قامت المملكتان بعد هذه الوحدة بالزحف على الجنوب والاستيلاء على آخر المعاقل العربية فى أسبانيا (مملكة غرناطة) عام ١٤٩٢، كما شاءت الأقدار أن تصل فى العام نفسه السفن الأسبانية بقيادة «كريستوفر

كولمبس» (أو «كريستوبال كولون» ، كما يعرف فى الأسبانية) إلى الدنيا الجديدة، ثم تعود حاملة نبأ الاكتشاف العظيم الذى هز البلاد هزًا، وكان سقوط غرناطة واكتشاف العالم الجديد بمثابة حدثين خطيرين جعلا أسبانيا تشرئب بعنقها للقيام بدور تاريخى لم تفكر فيه من قبل، وفى ذلك العام أيضًا طردت أسبانيا اليهود من أرضها بعد أن شاركوا بأموالهم فى فتح غرناطة، فاكتملت بذلك وحدتها الدينية، إلا قلّة تكفلت بها محاكم التفتيش، واكتملت لها معظم وحدتها السياسية إلا مملكة «نبرة» Navarra التى ستنضوى تحت لواء الوحدة بعد قليل (فى عام ١٥١٢) ، ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى أصبح العلم الأسبانى يرفرف على أجزاء من العالم الجديد وعلى جزر فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وعلى مدن إيطالية.

ولما دخل القرن السادس عشر كانت الجيوش الأسبانية تغزو المغرب ذاته، حيث دخلت وهران واحتلت مواقع فى طرابس ومراكش، وكانت هذه الحملات تحت قيادة رجل من أكبر من عرفتهم أسبانيا من رجال الدين فى ذلك العصر (وهو أيضًا رائد الحركة الإنسانية فيها) ونعنى به: الكاردينال «ثيسنيروس» Cisneros ، وفى هذا رمز صريح الدلالة على طابع القرن كله: الحرب والدين أو السيف والصليب.

وبعد الملكين الكاثوليكيين اعتلى عرش أسبانيا (من ١٥١٧ إلى ١٥٥٦) ملك صار المثل الأعلى لهاتين القوتين، فأصبح إمبراطوراً

يجمع تحت حكمه أسبانيا والعالم الجديد وألمانيا والنمسا والبلاد الواطئة وبرجونيا وصقلية وسيردينيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا، وأصبح يقاوم التوسع العثمانى فى أوروبا ويشن الغارات على تونس والمغرب الإسلامى كله ويثبت أقدامه فيه، ويحارب المذهب المسيحى الجديد البروتستانتية التى روَّج لها «إيراسمو» Erasmo بكتاباته وانتقاداته الحادة للكنيسة الرسمية ولرجال الإكليروس)... نعم أصبح كارلوس الخامس يحمل أضخم تاج فى أوروبا بل وفى العالم بأسره ، وغدت إمبراطوريته مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس، وكان لهذا كله أثره فى الأمة الأسبانية وفى الكنيسة وفى الناس على اختلاف مشاربهم.

وبعد «كارلوس الخامس» تولى ابنه «فيليب الثانى» الحكم (وعمر ثربانتس تسع سنوات) ليواصل ما بدأه أبوه، ويمضى فى حروبه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وينشىء المعبد المسيحى الضخم الذى يعتبر الأعجوبة الثامنة من أعاجيب الدنيا وهو دير الرسكوروويال تخليداً لانتصاراته على فرنسا، وينتصر على الأسطول العثمانى فى موقعة «ليبانتو» التى شارك فيها ثربانتس.

مات «فيليب الثانى» عام ١٥٩٨ وثربانتس فى الحادية والخمسين، ثم قدر لكاتبنا أن يعيش بعد حكم «فيليب الثانى» ثمانية عشر عاماً أخرى فى عصر «فيليب الثالث» الذى خلف أباه وبقى فى الحكم حتى عام ١٦٢١، وقد شهد ثربانتس على عهد هذا الملك الأخير الانهيار السريع الذى كانت تسير نحوه أسبانيا بخطى حثيثة، بل إنه شهد

بوادر هذا الانهيار فى أيام «فيليب الثانى» نفسه، شهده ممثلاً فى تدمير الأسطول الأسبانى على يد نظيره الإنجليزى عام ١٥٨٨، فانتهت بذلك أسطورة هذا الأسطول البحرى الذى لا يقهر (كما كانوا يلقبونه) ولئن كان ثربانتس قد شهد انتصار هذا الأسطول على الأتراك فى معركة «ليبانتو» المذكورة فإن تفريط أسبانيا فى هذا النصر الغالى وعدم استثمارها له حفز الأتراك على العودة إلى تهديد البحر والبر من جديد، لقد رأى ثربانتس أيضًا فى عهد «فيليب الثانى» ثورات الأراضى الواطئة على أسبانيا تتصل ولا تنقطع، ومن ورائها التهديدات الفرنسية والإنجليزية. كما شاهد كثيراً من المعاقل الأفريقية التى احتلها الجيش الأسبانى تسقط واحداً تلو الآخر، وعاين فوق هذا وذاك الثورة داخل الأراضى الأسبانية نفسها تقوم بها تلك الجموع الصغيرة اليائسة من بقايا المسلمين والتى اعتصمت بالجبال (البشرات Alpujarras) متحدية سلطان الإمبراطورية، (وإن كانت أسبانيا قد تمكنت فى النهاية من القضاء عليها وترحيل الموريسكيين من أرضها)

أما فى عهد «فيليب الثالث» فقد لمس ثربانتس بنفسه فوضى الإدارة الداخلية وضعف النفوذ الخارجى بما أوشك معه أن ينطفئ مجد أسبانيا، وليس من شك فى أن هذا الانهيار السياسى والعسكرى والاقتصادى كان له أبلغ الأثر فى نفس ثربانتس وفى كتاباته أيضًا.

إنتاج ثربانتس الأدبى:

إبدا ع ثربانتس موزع بين الأجناس الأدبية الرئيسية فى عصره: الشعر والمسرح والقصة، لكن شهرته قاصًا طغت على الجانبين الآخرين وتسببت فى عزوف الباحثين عنهما.

١ـ اختلف النقاد فى تقييم ثربانتس شاعراً، فبينما يذهب البعض إلى حد إطرائه والثناء عليه، نجد آخرين يقللون من شأن أعماله الشعرية، ولتوخى الحقيقة نقول إنه شاعر متوسط المستوى، وإن موهبته الشعرية لا ترقى إلى براعته النثرية المتمثلة فى فن القص، وقد اعترف ثربانتس بقدراته المحدودة فى هذا المجال حين قال فى قصيدته الطويلة «رحلة إلى البرناس»:

لاأكف عن العمل والمثابرة
لاجتلاء موهبتى شاعراً
وهى المَلَكَة التى حرمتنى منها السماء.

وجزء كبير من أشعار ثربانتس الغنائية (المتأثرة بنظائرها الإيطالية والأسبانية، لاسيما بشعر جارثيلاسو دى لابيجا) مدرج فى أعماله القصصية حيث يشتمل «دون كيخوته» و«بيرسيليس» على بعضه، بينما تحتوى «لا جالاتيا» و«قصص مثالية» على معظمه، كما أن قصائد أخرى غير مدرجة فى أعمال نثرية، مثل: السونيت الساخر الذى يحمل عنوان «إلى جثوة فيليب الثانى» Al túmulo de Felip II وقصيدة «رسالة إلى ماتيو بانكيث» ، وقصيدتان فى الأسطول الأسبانى قبل نكبته وبعدها..وله أيضا عمل شعرى منفرد

عبارة عن قصيدة مطولة بعنوان «رحلة إلى البرناس» (أو رحلة إلى وادى عبقر) صدرت عام ١٦١٤ فى مدريد، وفيها يتحدث عن شعراء عصره (واحداً بعد آخر) المجتمعين أمام أبو للو ـ إله الشعر والجمال ـ بعد استعانة الأخير بهم للدفاع عن جبل البرناس ضد الشعراء الدخلاء الذين يريدون اقتحامه، وتكمن أهمية هذه القصيدة الطويلة ـ المكتوبة فى شكل ثلاثيات ـ في اشتمالها على كثير من المقطوعات الشعرية التى تتناول جوانب عدة من حياة مؤلفها وتميط اللثام عن مدى ما كان يكابده فى خريف عمره من حزن وكآبة.

٢ـ كانت الكتابة للمسرح خلال ذلك العصر تدر ـ علاوة على الشهرة ـ عائداً مادياً مجزيًا، وتكفى الإشارة فى هذا المقام إلى حظ لوبى الوافر منهما، وقد أدلى ثربانتس بدلوه فى هذا الجنس الأدبى، لكنه لم يحظ فيه لا بالشهرة ولا بالمال.

أما بالنسبة للأعمال المسرحية التى كتبها فيمكن تقسيمها إلى مرحلتين مختلفتين: المرحلة الأولى وتتميز بالوفاء للقواعد الكلاسيكية (مثل : اقتصار المسرحية على خمسة فصول ، ووحدة الزمان والمكان، واستخدام لغة راقية رصينة) وقد كتب ثربانتس خلال هذه المرحلة العديد من المسرحيات التى عرضت فى حياته ولاقت نجاحاً، ولم يصل إلينا من إنتاج هذه المرحلة سوى عملين فقط، وهما:

«معاهدة الجزائر» El trato de Argel ،

و «حصار نومانثيا» El Cerco de Numancia

كان ثربانتس يتهكم خلال هذه المرحلة (كما جاء فى الجزء الأول

من «دون كيخوته» من المسرح الشعبى للوبى دى بيجا الذى يتوخى البساطة والمرونة، ناعتاً إياه بالابتعاد عن القواعد الكلاسيكية، لكنه تراجع بعد عدة سنوات ـ إزاء النجاح الكبيرللموجة الجديدة ـ عن أفكاره القديمة وأذعن فى النهاية للتجديد الذى أحدثه «لوبى» لأن مرور الأيام ـ حسب قوله ـ كفيل بتغيير الأشياء وإنضاج الفنون»، ومن ثم فقد جاء إنتاج المرحلة الثانية مواكبًا لتيار التجديد ومرتديًا عباءته، وهو عبارة عن «ثمان مسرحيات كوميدية» Ocho comedi-as ، وثمان لوحات شعبية ذات طابع فكاهى ساخر Ocho entrem-eses ، نشرت جميعها فى سنة ١٦١٥ ولم تعرض على خشبة المسرح أبدًا لموت صاحبها فى العام التالى، ومن بين المسرحيات الثمانى الكوميدية تبرز: «حمامات الجزائر» Los banos de Argel وبدرو دى أورديمالس»، و«تاجر الأعراض المحظوظ» El rufian di-choso . أما اللوحات المسرحية الهزلية، المكتوبة نثرًا Entremeses ، فهى أكثر ما عرف من مسرح ثربانتس وحظى بالتقدير والثناء من جانب النقاد، إذ اعتبرها الكثيرون من أهم آثار المسرح الأسبانى على مر العصور، ويعتبر «لوب رويدا» Lope Rueda من أبرز الكتاب القدامى الذين ألفوا فى هذا اللون المسرحى، ورغم هذا فإن مقطوعات ثربانتس الهزلية تفضل ما كتبه «رويدا» وتتفوق عليه فى الحيوية وخفة الظل والسخرية اللاذعة، وهذه اللوحات (التى كانت تعرض خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة) عبارة عن مسرحية قصيرة (من فصل واحد) ذات حدث بسيط وموضوع

فكاهى يدور حول شخصيات شعبية محددة بدقة.

ومن أهم مقطوعات ثربانتس الثمانية نذكر: «قاضى الطلاق» El Juez de los di vorcios و«كهف شلمنقة» La cueva de Sala- manca ، و«لوحة المعجزات» El retablo de las maravillas ، و«الحارسة اليقظة» La guarda cuidadosa . ويختلف مسرح ثربانتس عن مسرح لوبى دى بيجا فى أنه يركز على الجوانب النفسية للشخصيات وفحص دواخلها أكثر من اهتمامه بالحبكة الدرامية، كما أن تطور الأحداث فيه يفتقر إلى المهارة، وإن كانت طبائع الشخصيات ورغباتها وأحاسيسها مرسومة بعناية وإتقان شديد.

٣ـ بدأ ثربانتس مشواره الأدبى بقصة «لا جالاتيا» La galatea ، المنشورة فى سنة ١٥٨٥، وهى تنتمى للون قصصى يعرف «بقصص الرعاة» وتشتمل على كل عناصره تقريبا: مثالية المناظر الطبيعية والأجواء التى تدور فيها الأحداث، والحب الأفلاطونى (على شاكلة León Hebreo) والنكبات العاطفية والعقبات الوعرة التى تعترض طريق المحبين، ورتابة الأحداث لطول الحوارات السقيمة بين الرعاة، والنهايات غير المتوقعة نتيجة تدخل السَّحرة، ...إلخ.

وقصة ثربانتس لاتضيف جديداً فى هذا المجال ولا تعتبر من أفضل ما كتب فيه لأن أحداثها طويلة والشعر المدرج فيها زائد عن الحد وللصنعة المهيمنة على أسلوبها ، ورغم ضآلة القيمة الفنية لهذا العمل فإنه يكشف لنا عن جانب مهم فى التكوين الثقافى

والأيديولوجى للمؤلف ويتمثل فى : تشربه للأجناس الأدبية السائدة حينذاك وولعه بأفكار عصر النهضة وإتجاهاته (مثل الأفلاطونية، وتمجيد الطبيعة، وإضفاء المثالية على عالم الرعاة..) ومن هنا يتضح أن مثالية ثربانتس تنهل من معين عالمى الفروسية والرعاة... ومما يدل على شدة تعلق ثربانتس بهذا اللون القصصى (رغم تهكمه الساخر فى أخريات حياته من العالم الخيالى الذى يصوره الكتاب للرعاة حين قال: إنهم يقضون يومهم فى استخراج القمل والحشرات من أجسادهم وفى ترقيع ثيابهم المهلهلة) أنه ظل يعد إلى ما قبل وفاته بقليل بإخراج جزء ثالث من القصة، وأن رواية دون كيخوته تضم لوحات طبيعية مثالية على غرار الموجود منها فى قصص الرعاة، وأن بطله دون كيخوته فكر ـ بعد عودته إلى قريته مهزوماً مكلوماً ـ فى تطليق الفروسية والاشتغال بالرعى.

وفى عام ١٦٠٥ صدر الجزء الأول من دون كيخوته بينما ظهر الجزء الثانى بعد عشر سنوات كاملة، ويدين ثربانتس ـ بشهرته الواسعة قاصاً ـ لهذه الرواية التى طبقت شهرتها الآفاق واعتلت عرش الفن الروائى فى العالم أجمع، ولما كان الحديث عن هذه الرواية الخالدة يفوق حدود هذه الإطلالة على الكنوز «الثربانتسية» فإننا نحيل القارئ إلى المقدمة المركزة التى استهل بها الدكتور الأهوانى ترجمته لها.

وفى عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة ثربانتس الأخرى التى تحمل عنوان «قصص مثالية» وفى مقدمتها يعلن على الملأ أنه

أول من ألف قصصا فى اللغة الأسبانية، لأن الموجود منها قبله كان: إما مترجما أو نابعًا من التراث الفلكلورى أو مستقى من الأدب الإيطالى أما هذه - يقول ثربانتس - فتخصنى وحدى ، وليست مقلدة أو مستعارة، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى، وشبت بين ذراعى خيالى، وإعلان المؤلف هذا ليس من قبيل الإدعاء ولا يجافى الحقيقة لأن مصطلح «قصة» Novela كان يطلق حينذاك - طبقا للمفهوم الإيطالى السائد - على «القصة القصيرة» فقط، وعلى هذا فإن الموجود منها فى أسبانيا كان قبل ثربانتس إما ترجمات أو اقتباسات ملائمة للذوق المحلى، ولهذا السبب نجد أن كثيراً من رجالات الأدب المنصفين قد اعترفوا - بعد قراءتهم لقصص مثالية - بأصالة ثربانتس فى هذا المجال حتى إن أحدهم (تيرسو دى مولينا) أطلق عليه لقب بوكاشيو الأسبانى، وخير دليل على ريادة ثربانتس فى هذا اللون القصصى هو اقتفاء كُتاب القرن السابع عشر لأثره ومحاكاتهم لفنه وأسلوبه، بل إن البعض منهم لم يتورع عن استعارة عنوان «قصص مثالية» لإصداراته.

أما عن وصف المؤلف لمجموعته القصصية بـ «مثالية» فقد برره فى المقدمة المشار إليها على النحو التالى: لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة، ولو لم أكن حريصا على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك - موجهًا كلامه إلى القارئ - الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة.

وعلى الرغم من تفسير الكاتب لمعنى كلمة «مثالية» التى اختارها

وصفًا لهذه المجموعة فإن النقاد اختلفوا ما بين مؤيد ومعارض لما ذهب إليه: فالبعض منهم يعتقد أنها (إذا ما قورنت بمثيلاتها من القصص الإيطالية خالعة العذار، كما فى El Decamerón على سبيل المثال) ترمى حقا إلى تنقية الروح مما شابها، وتدعو إلى الطهارة والعفة، وتنتصر للفطرة، وتهدف - من خلال الأمثال والعظات - إلى تقويم السلوكيات والعادات الاجتماعية الخاطئة ، أما البعض الآخر من النقاد فيرجع حرص ثربانتس فى المقدمة على إبراز الهدف التربوى والأخلاقى للعمل إلى خوفه من محاكم التفتيش التى قد تعثر فيه على ما يتعارض مع العقيدة أو القيم الاجتماعية السائدة وقتذاك. الغجرية هى القصة الأولى فى هذه المجموعة التى لن نكون مبالغين إذا قلنا إنها تعتبر كتابا مفتوحا للمؤرخين وعلماء الاجتماع.

د. على عبد الرءوف البمبى

الغجرية

يبدو أن الغجر ـ ذكوراً وإناثًا ـ جاءوا إلى هذا العالم ليكونوا لصوصًا: فهم ينحدرون من أصلاب وأرحام لصوص، يتربون بين اللصوص ، يتعلمون فن اللصوصية، ويمارسون فى النهاية ـ فى كل وقت وتحت أى ظرف ـ ما يحيون لأجله.. وشهوة السرقة عندهم لا تخبو جذوتها إلا مع انتزاع الروح من الجسد... من بين هؤلاء كانت توجد فى وطننا غجرية شمطاء، بلغت من العمر أرذله وانتهت بذلك صلاحيتها واستحقت الإحالة إلى التقاعد طبقا لشريعة «كاكو»[١]. التقطت هذه العجوز طفلة اسمتها «بريثيوثا»[٢]، احتضنتها على أنها حفيدتها، أشربتها خصال الغجر ، وعلمتها فنون السرقة وكافة أساليب الغش والاحتيال، برعت «بريثيوثا» فى الرقص والغناء وتفوقت فيهما على جميع أفراد عشيرتها، كما برّت

فى الجمال والفطنة والأدب سائر بنات قومها، بل وكافة الشهيرات بتلك الصفات فى عصرها، لم تفلح قسوة الشمس ولاتيارات الهواء ولارداءة الطقس - التى يتعرض لها الغجر أكثر من غيرهم - فى النيل من نضارة وجهها أو تشويه ودباغة بشرتها أو نعومة يديها، وعلاوة على ما تقدم فقد كانت حصيفة ومهذبة للغاية وكأنها نشأت فى أرقى البيوتات لا داخل مضارب الغجر، كانت تتمتع أيضًا بشىء من الملاحة والظرف، لكن فى غير تهتك أو استهتار، وتتميز بالعفة، إذ لم تكن تجرؤ غجرية - شابة كانت أم عجوزًا - على ترديد الأغانى الهابطة الخليعة أو النطق بكلمة خادشة للحياء فى حضرتها، عندما أدركت أنثى الصقر العجوز قيمة الكنز الذى بين يديها قررت تسريح فرخها من قفصه كى يسبح طليقًا فى الفضاء بعد أن علمته كيفية العيش معتمدًا على مخالبه.

تعلمت «پريثيوثا» كمًا هائلاً من الأغانى الدينية والطقطوقات والأغانى الشعبية - لا سيما الرومانثية - التى كانت تصدح بها فى ملاحة منقطعة النظير، ولأن جدتها الداهية كانت متيقنة من أن تلك المواهب المصحوبة بجمال حفيدتها الفريد ستصبح خلال سنوات معدودات عوامل جذب سعيدة لكل ما من شأنه زيادة أرصدتها، فقد حاولت بشتى الطرق دعمها وصقلها، ومنها الاستعانة بعدد من الشعراء فى تأليف الأغانى، فمن المعروف أن هناك شعراء يتعاملون مع الغجر ويبيعون لهم أشعارهم مثلما يفعلون مع العميان الذين يدعون الإتيان بالمعجزات بهدف توسيع أرزاقهم: فعالمنا الذى اختلط

فيه الحابل بالنابل قد تهبط فيه العبقرية دون سابق إنذار - تحت وطأة الجوع - على رءوس أناس لا هم فى العير ولا فى النفير.

تربت «بريثيوثا» فى أماكن عدة من قشتالة، ولما بلغت الخامسة عشرة أعادتها الجدة المزعومة إلى العاصمة ، إلى مضارب الغجر الواقعة فيفضاء «سانتا باربرا»[٣]، عازمة على ترويج بضاعتها فى المدينة التى يباع فيها كل شىء ويشترى، دخلت پريثيوثا مدريد لأول مرة فى عيد «سانتا آنا»[٤] - راعية المدينة وحاميتها - وشاركت فى رقصة تضم ثمان غجريات (أربع شابات ومثلهن عجائز)علاوة على غجرى ضليع يقود الفرقة، ورغم أنهن جميعًا كن فى أوج نظافتهن وزينتهن بيد أن نظافة «بريثيوثا» سحرت العيون التى كانت تنظر إليها... ومن بين نغمات الطبول ونقر الأصابع واللفتات السريعة سرى حفيف الأصوات مشيدًا بجمال وملاحة الغجرية الصغيرة، فتجمع الناس من كل حدب وصوب لرؤيتها، لكن إعجابهم بها تعاظم عندما أخذت تشدو بصوتها العذب الذى نال رضا واستحسان القائمين على الاحتفال واعتبروا غناءها بمثابة الدرة الثمينة على صدر أفضل رقصة قُدمت، انتقلت الفرقة بعد ذلك لأداء رقصتها المصحوبة بالغناء فى ساحة كنيسة «سانتا ماريا»[٥] أمام صورة «سانتا آنا» وعندما جاء الدور على پريثيوثا تناولت دفًا وعلى نغمات جلاجله غنت الرومانث التالى، وهى تدور حول نفسها دورات متسعة، رشيقة ولطيفة:

شجرة رائعة فريدة

أخرَّت ثمارها
سنوات عديدة
جلَّلتها بالحداد،
وتمكنت من جعل الرغبات
الشريفة الخالصة للقرين،
تعصف بآمالها
العارية عن اليقين،
ومن تأخرها الطويل
تولد ذلك الكدر
الذى ألقى من المعبد
بالذكر الأشد صوابًا وحنكة:
أيتها الأرض الجدباء المقدسة
لقد تمخضت فى النهاية
عن كل هذه الوفرة
التى يحيا عليها العالم،
آنت دار لسك العملة
فيها تشكل القالب
الذى سكت فيه
صورة الرب البشرية،
يا أماً لابنة
استطاع الرب من خلالها

تسطير عظيم قدرته
على صفحة الزمان الأبدية،
إلى ساحتك وساحتها
أنت، يا آنا الملاذ
حيث تتجه آرزاؤنا
باحثة عن العلاج،
على نحو ما، لاشك عندى،
لك فى إمبراطورية الحفيد
للرحمة والعدالة
حصة لا يُستهان بها.
لأنك فى القصر الأعظم
تشاركين، لابد أن بصحبتك هنالك،
عن بكرة أبيهم
آلافا من الأقارب.
يالك من ابنة، ياله من حفيد
وياله من صهر! فى الانتصار
لقضية الحق والعدالة
منجم ثرٌّ لا ينضب
أنت الآن إلى جوار
الرب المبدد للوحشة
تنعمين بجلال

بالكاد أتخيله.

أُعجب الحاضرون بشدوها، وتناثرت حولها التعليقات: منهم من قال: «بوركت، أيتها الفتاة! بينما عبر آخرون عن أسفهم قائلين: «واحسرتاه على الشابة الغجرية ! لاتستحق أن تكون كذلك، بل ابنة لسيد عظيم». وفريق ثالث كان أشد فظاظة حين ردد: دعوا الصبية تكبر لتصبح على شاكلة ذويها. نقسم أن بداخلها تتخلق حاليا شبكة مفعمة بالعقد لاصطياد القلوب الولهانة». ولم يعدم المقام رجلاً أشيب تخلى عن وقاره عندما شاهدها ترقص بخفة ليغازلها قائلاً: هلمى يا بنية، هلمي، ادعسى، يا حبى ، ذرات التراب الدقيقة تحت قدميك»، فردت عليه دون أن تمسك عن الرقص: وسأدعس معه كلماتك السالخة».

انتهى عيد «سانتا آنا» الذى رجعت منه پريثيوثا إلى مضارب الغجر منهكة بعض الشيء ، لكنها خلّفت وراءها أثراً طيباً فى النفوس، وأصبح الناس فى المدينة يتحدثون فى حلقات عن جمالها وصرامتها واستقامتها. بعد مضى خمسة عشر يوماً عادت ثانية إلى مدريد بصحبة ثلاث فتيات وهن مستعدات بالدفوف وبرقصة جديدة وأغان رومانثية وأخرى قصيرة مبهجة لكنها عفيفة، هذا لأن پريثيوثا لم تكن تسمح لمن يرافقها بالغناء الهابط الخليع الذى لم تقربه أبداً، ولهذا نالت إعجاب الجميع وأصبحت محطًا لأنظارهم، لم تكن عين الغجرية العجوز تغفل عنها لحظة واحدة ـ كأنها «آرجوس»[٦] ـ خوفًا من قيام أحدهم باختطافها: كانت تناديها

بحفيدتى فترد عليها الصبية بجدتى... شرعن فى الرقص فى الجانب الظليل من شارع طليطلة، ولم يكدن يبدأن حتى أخذت العجوز فى الطواف على الحلقة لتلقى إحسانات المتفرجين التى كانت تنهمر عليها - فى شكل فلوس وأنصافها(٧) - كالمطر ، ذلك لأن الجمال الأخاذ يجبر الإحسان النائم على الاستيقاظ.

وعندما انتهت الرقصة قالت بريثيوثا:

- لوأعطانى كل واحد منك فلسا سأغنى منفردة رومانثا رائعا للغاية يتناول قدّاس الرحيل الذى أدته صاحبة الجلالة الملكة «مارجريتا» قبيل مغادرتها «بلد الوليد» إلى «سان يورنتى» إنه رومانث مشهور، من تأليف شاعر فحل، مكانته بين زملائه مثل مكانة قائد الفرقة بين الجنود.

لم تكد تُنهى جملتها الأخيرة حتى رد عليها المتحلقون فى صوت واحد:

- هيا ، يا بريثيوثا، غنى ولك ما تطلبين.

وهكذا انهمرت الفلوس عليها كقطع الثلج الصغيرة لدرجة أن العجوز كانت بحاجة إلى أكثر من يدين لالتقاطها، بعد جمع المحصول قرعت بريثيوثا الدف وعلى نغماته السريعة الملتاثة غنت ما يلى:

إلى قداس الرحيل خرجت
ملكة أوروبا العظيمة،
فى الاسم والقدر

جوهرة غالية ثمينة.

تتجه إليها العيون

فتخطف ألباب الناظرين

المعجبين بورعها،

ببهائها وموكبها الفخيم.

ولبيان أنها قطعة من السماء

تشغل الأرض بحذافيرها،

على يمينها كانت «شمس النمسا»

و«الصبح الندى» على يسارها.

خلف ظهرها يتبعها

«فلك الزهرة» بازغًا

فى غير موعده، ليل النهار

تبكيه الأرض والسماء.

لو كانت السماء تحظى

بعربات مضيئة من النجوم،

فهناك عربات أخرى تزين

النجوم الحية سماءها.

«زحل» العجوز هنا

يصقل لحيته ويجددها،

ورغم تأخره، إلا أنه يمضى رشيقًا،

فالبهجة تشفى من النقرس.

الإله الثرثار يلقى
بكلام معسول مداهن،
يرصع «كيوبيد» شفرات متنوعة
باللآلئ والياقوت الأحمر.
هناك يمضى «مارس» الغضوب
فى هيئة طريفة نادرة
أكثر حيوية من شاب رشيق،
تعلوه الدهشة من ظله.
إلى جوار «بيت الشمس»
يمشى «جوبيتر» لا يوجد شئ
محال على الحظوة
القائمة على قواعد حصيفة.
يختال «القمر» على خدود
إلهات عديدة من البشر،
«فينوس» عفيفة، تتراءى فى جمال
اللواتى صاغتهن يد القدر.
أطياف صغيرة لـ «جانيميدس»(٨)
تغدو، تروح وتعبر
هذا المجال الأسطورى
بأحزمة مزركشة بمسامير ذهبية.
ولكى يتم إعجاب الجميع

ويكتمل ذهوله، لا يوجد شئ
قد يتصوره الخيال
إلا وهو موجود بسخاء بالغ.
«ميلان» بأقمشتها الوثيرة،
الهند بلآلئها المثيرة،
وبعطرها شبه جزيرة العرب
يخطرن هنالك فى مشهد عجب.
مع أصحاب النوايا السيئة
يمضى الحسد بأنيابه القواطع،
بينما تعشش الطيبة فى صدر
الإخلاص الأسبانى.
فرحة العالم بأسره،
هاربة من الضيق والكدر،
تجوب الشوارع والميادين،
متجاسرة على حافة الجنون.
بآلاف التسابيح الخرساء
أنطق الصمت الأفواه،
يردد الفتيان
ما لهجت به ألسن الرجال.
صوت ينادى: «أيتها الكرمة الخصيبة
ازدهرى، ارتقى، عانقى وداعبى

دَرْدارك الحقلى
لتصبحى لألف قرن ظلاً
لعظمتك ومجدك،
لخير أسبانيا وشرفها،
لنجدة الكنيسة ودعمها،
لدهشة دار الإسلام وعجبها»[٩].
صاح لسان آخر منشداً:
«انعمى بالحياة، أيتها الحمامة البيضاء،
لتلدى لنا من صلب تاجين صقوراً جارحة
بدلاً من الأولاد،
يفزعون من الهواء
الخطّافين الهائجين،
وينشرون أجنحتهم
على الفضائل الرعديدة».
لسان ثالث، أكثر فطنة ومهابة،
أشد حدة وغرابة،
قال، ساكباً البهجة
من الفم والعينين:
هذه الدرة التى أنعمت بها علينا،
عرق اللؤلؤ للنمسا، وحيدة فريدة،
عليها تتحطم آلات الحرب

وتتهشم النوايا الخبيثة،
تنسكب منها الآمال والأحلام
وتتمحى أمامها الرغبات الأثيمة،
إنها تبعث المخاوف
وتجهض الأمهات الحوامل».
فى أثناء هذا وصلت إلى معبد
«فينكس» المقدس الذى قضى نحبه
فى روما محترقًا ، لكنه ظل حيًا
من خلال شهرته ومجده.
إلى رحيق الحياة
إلى راعية السماء،
إلى من بتواضعها تدعس الآن
النجوم تحت قدميها.
إلى الأم والعذراء معًا،
إلى «الابنه» وزوجة الإله،
تتجه «مارجريتا» بالصلاة
وهى جاثية على ركبتيها:
«آقدم لك ما وهبتنى إياه،
أيتها اليد المعطاءة،
لو غاب إحسانك ومعروفك
يطفح البؤس دائمًا والشقاء.

من فاكهتى هاهى الباكورة
أقدمها لك، أيتها العذراء الجميلة:
أنت الراعية لأولئك وهؤلاء،
تتلقفينهم ، تحمينهم وتدفعينهم إلى الأمام.
أعهد بك إلى أبيك وأوصيه بك،
«عملاق بشرى» يحنى ظهره
ثقل ممالك كثيرة
وبلاد جد سحيقة.
أعرف أن قلب الملك
فى يد الرب يقطن،
وأن كافة طلباتك ـ أيتها الرحيمة ـ
تلقى من الرب استجابة».
عندما انتهت هذه الصلاة
تلتها أخرى مشابهة تغنت بها
الأناشيد والأصوات التى توحى
بأن «المجد» على الأرض ماثل.
اختتمت الطقوس
بالمراسم الملكية،
وإلى أدراجها عادت
صاحبة المنزلة العليَّة(١٠).
لم تكد بريثيوثا تنتهى من غنائها حتى دوى التصفيق وتعالت

هتافات الجمهور فى صوت واحد:

- عودى للغناء فالفلوس معنا كثيرة ولن نضن بها عليك.

كان حاضراً هناك ما يزيد عن مائتى شخص يشاهدون الرقصة ويستمعون إلى الغناء.

تصادف هذا المشهد مع مرور أحد ضباط المدينة برتبة ملازم، ولما رأى الجماهير المحتشدة سأل عن السبب فأخبروه أنهم يستمعون لغناء شابة غجرية جميلة.اقترب الملازم بدافع حب الاستطلاع، ولما كان المقام لا يتناسب مع طبيعته الجادة لم يستمع للرومانث حتى آخره، لكنه أمر خادمه - لشدة إعجابه بالفتاة - بالذهاب إلى الغجرية العجوز ليطلب منها زيارة الضابط فى بيته مع فرقتها لكى تستمع إليها زوجته «دونيا كلارا» ، نفَّذ الخادم أمر سيده فأبلغته العجوز أنها والفرقة رهن إشارته، انتهين من الرقص والغناء، وأثناء انتقالهن إلى مكان جديد اقترب منهن أحد الوصفاء الشبان ثم اتجه نحو بريثيوثا وسلمها ورقة مطوية قائلاً لها:

- غنى الرومانث المدون فى هذه الورقة، وسأمدك - من وقت لآخر - بقصائد أخرى ستجعل منك أشهر وأفضل مغنية رومانث فى العالم.

- سأحفظه عن طيب خاصر، وأرجو ألا تنقطع إمداداتك بشرط أن تكون عفيفة، ولو أردت لها مقابلاً سيكون الحساب بعد كل مجموعة من اثنتى عشرة قصيدة : أى بعد غنائها لأن مجرد التفكير فى ثمنها مقدماً أحد ضروب المستحيل.

- سأكون سعيداً - رد عليها الوصيف - بأى مبلغ أتلقاه منك،

وعلاوة على هذا لو تبين أن الرومانث ردئ أو غير عفيف لن يدخل ضمن الحساب.

- أنا وحدى المعنية بالانتقاء وتحديد المناسب من عدمه - ردت عليه.

وفى أثناء سيرهن فى الشارع سمعن أصوات رجال تنادى عليهن من خلف قضبان إحدى النوافذ ، أطلت پريثيوثا من القضبان فشاهدت صالة فاخرة الأثاث منعشة الهواء وبداخلها رجال كثيرون: بعضهم يتسلى بالألعاب المختلفة، والبعض الآخر يذرع الصالة جيئة وذهابًا.

- أتريدون أن أقوم بتوزيع ورق اللعب عليكم أيها «القادة» ؟ (نطقت پريثيوثا «السين» ثاء فى الكلمة الأخيرة لأنها غجرية ، والغجر اعتادوا ذلك رغم أنه ليس متأصلاً أو طبيعياً فيهم)(١١).

على صوت بريثيوثا العذب ووجهها المضئ أمسك اللاعبون عن اللعب والمتجولون عن السير، واتجهوا جميعًا صوب النافذة لرؤية الفتاة التى سمعوا عنها قبل أن يشاهدوها، قالوا لها:

- ادخلى ومعك زميلاتك لتوزعى علينا ورق اللعب ولك حصة معتبرة فى مكسب الفائز سعيد الحظ.

- سأدخل لو عاهدتمونى على التزام الأدب وعدم الإتيان بما يخدش الحياء.

- يمكنك الدخول يا صبية - قال أحدهم - وأنت مطمئنة إلى أنه لن يمس واحد من الموجودين شعرة من حذائك ، أقسم على هذا بشرفى

كرجل وبشرف شارة الفروسية التى أضعها على صدرى. (نطق بالجملة الأخيرة وهو يضع يده اليمنى على شارة أخوية قلعة رياح المقدسة).

- إذا شئت الدخول يا پريثيوثا فهنيئًا لك - قالت واحدة من الغجريات الثلاث المصاحبات لها - أما أنا فلن أضع قدمى فى مكان يعج بالرجال.

- اسمعينى يا «كريستينا» - ردت عليها پريثيوثا - ما عليك توخى الحذر منه بالفعل هو الانفراد برجل واحد وفى مكان منعزل لا بجماعة من الرجال، لأن كثرتهم تجعلك فى مأمن من تربصهم بك، وشئ آخر يجب ألا يغيب عن بالك : أن المرأة الحريصة على شرفها بوسعها الحفاظ عليه حتى لو كانت بين فرقة كاملة من الجنود، صحيح أن الابتعاد عن مواطن الخطر مطلوب، وأن على المرأة تفادى المواقف التى تجعلها لقمة سائغة فى فم الغير، لكن الخطر يكمن فى المواقف السرية المشبوهة لا فى المعلنة على رءوس الأشهاد.

- لندخل إذن يا پريثيوثا .. قالت كريستينا - فأنت أفقه من حبرْ علامة..

حمستهن العجوز فدخلن، وفور دخول بريثيوثا لمح فارس قلعة رياح الورقة المطوية فى صدرها فاقترب منها واستلها بخفة، صاحت فيه عندئذ :

- آى ، لا تأخذها بالله عليك، إنها لرومانث أعطوه لى منذ قليل ولم أجد وقتًا لقراءته.

- وتعرفين القراءة أيضاً، يا بنية؟ - سألها أحدهم.

- وتكتب كذلك - ردت العجوز - لقد ربيت حفيدتي كما لو كانت ابنة معلم.

بسط الفارس الورقة فوجد بين طياتها إسكودو ذهبياً ، قال:

- بالفعل، الخطاب يحتوى على الأجرة، مدى يدك، ياپريثيوثا، وتناولى الإسكودو الموجود بداخله.

- كفى - قالت - لقد عاملنى الشاعر كأننى فقيرة معدمة، غريب أمر هذا الشاعر! ومع هذا فلو كانت الأمور ستسير على هذا المنوال فأهلا بأغانيه، بل إنى أتوسل إليه راجية أن يقدم لى مجموعات الرومانث بأكملها، واحدة تلو أخرى، ومن جهتى فلن أدخر وسعاً فى جس نبضها وإذا وجدتها صلبة سأتلقاها عندئذٍ بكل طراوة وليونة.

أعجب الحاضرون بكلام الغجرية الصغيرة وبكياستها وظرفها.

- اقرأ يا سيدى - أردفت پريثيوثا - بصوت عال، لننظر ما إذا كانت إجادة الشاعر ترقى إلى مستوى كرمه.

قرأ الفارس مايلى:

أيتها الغجرية الصغيرة، جمالك الأخاذ

ينتزع التبريكات من الأفواه:

ولما يحتوى عليه تكوينك من حجر

أطلقوا عليك پريثيوثا(١٢).

هذه حقيقة لاشية فيها،

سترين إذا نظرت إلى وجهك

أن الجمال صنو دائم

للصدود والإباء.

مثل القيمة المتعاظمة

تكبرين فى خيلاء،

وهذا يستدعى الخوف

على سنوات عمرك الغض،

«الباسيليسكو»(١٣) الذى ينمو

بداخلك، يغتال ناظراً.

والهيمنة الإمبراطورية، رغم لدانتها،

نراها مستبدة طاغية.

بين أنياب الفقر وفى ظل المخيمات،

كيف يولد مثل هذا الجمال؟

أو، كيف ربى تلك الجوهرة

متنتارس (١٤)المتواضع؟

لهذا سيكون شهيراً وبالنفس أكثر اعتداداً

لو قارناه بـ پريشوتا

نهر التَّاجه المذهب

لفيضان الماء عن شطئته.

تنبئين بحسن الطالع

وتجعلينه سقماً بعد ذلك،

سوياً، وفى طريق واحد

لايمضى مقصدك وجمالك

فى النظر إليك أوتأملك

يتربص خطر داهم،

نواياك تستميح له العذر،

ومن جمالك ينبعث الموت،

يقولون إنهن ساحرات

سائر بنات قومك:

لكن سحرك يا صبية

أشد وقعًا ومصداقية،

لأنك بحمل الأسلاب

من كافة الناظرين إليك،

جعلت، آه يا صبية!

السحر كامنًا فى عينيك.

إلى الأمام قدمًا تدفعك قواك،

فأنت راقصة محط إعجابنا

تجهزين علينا بسهام لحظك،

وتستولين على الأفئدة بجمال شدوك

لمئات ألوف أشكال السحر:

كلام، صمت ، غناء، نظرات،

نناشدك الاقتراب أو الاحتجاب

لأنك تؤججين نيران الحب فى القلوب.

على القلب الأكثر كمالاً
تملكين الولاية والزمام،
وعلى هذا خير شاهد
قلبى السعيد فى جنانك.
«بريثيوثا» يا أيقونة الحب،
يكتب هذا بكل تواضع وخنوع
من يموت لأجلك ويحيا،
بئساً رغم أنه عاشق .

- تتصدر البيت الأخير - عقبت بريثيوثا - كلمة «البائس» بما لها من دلالات سلبية، ومن وجهة نظرى فإنه لا يليق بالمحبين وصف أنفسهم بالبؤس لأن الحب والبؤس نقيضان لا يجتمعان.

- من علمك هذا، يا صبية؟ - سأل أحدهم.

- وهل علىّ انتظارأحد كى يعلمه لى؟ أليس لى عقل؟ألم أكمل الخامسة عشرة من عمرى؟ وفوق هذا فلست كتعاء ولا عرجاء ولا سقيمة الإدراك. عبقرية الغجر تمضى فى اتجاه مخالف لبقية البشر: دائماً يسبقون أعمارهم، لا يوجد غجرى مغفل، ولا غجرية خرقاء، وبما أن بقاءهم على قيد الحياة مرهون بحدة الذكاء والمكر والخداع فإنهم يشحذون قريحتهم كل آن ولا يتركون الصدأ يعلوها بأى شكل من الأشكال، ألا ترون هؤلاء الفتيات - صديقاتى - اللائذات بالصمت، الفاغرات الأفواه كأنهن بلهاوات ؟ جربوا وضعوا أصابعكم فى أفواههن وسترون إلى أى حد سينطبقن ، تحسسوا

ضروس عقولهن وستشاهدون الأعاجيب، إدراك فتياتنا فى الثانية عشرة يضارع إدراك غيرهن فى الخامسة والعشرين، ذلك لأن معلمهن ومؤدبهن هو الشيطان نفسه ـ علاوة على الخبرة ـ وهما يعلمان فى ساعة ما يحتاج تعلمه إلى سنة.

سيطر الوجوم على الحاضرين لما سمعوه من الغجرية الصغيرة، وتبارى اللاعبون فى إعطائها بعضاً من مكاسبهم، ولم يبخل عليها كذلك غير المشاركين فى اللعب. تلقى كيس العجوز ثلاثين ريالاً، وعندئذ انفرجت أساريرها وبدت أشد ابتهاجًا من «عيد الزهور» ، وقبل قيامها باقتياد نعاجها إلى بيت الملازم وعدت أولئك السادة الكرام بالعودة يومًا آخر بقطيعها لإدخال السرور عليهم.

كانت امرأة الملازم (دونيا كلارا) على علم مسبق بالزيارة ، ولذا كانت تنتظرهن على أحر من الجمر بصحبة جارة لها وقد التفت حولهما الخادمات والوصيفات اللاتى تجمعن هنالك لرؤية بريثيوثا، عندما تخطت الغجريات عتبة البيت بدت بريثيوثا وسطهن كأنها وهج شعلة عظيمة بين أضواء أقل سطوعًا، وهكذا جرى الجمع نحوها: البعض يعانقها والبعض الآخر يتأملها مفتونًا ، فهؤلاء يباركنها وأولئك يثنين عليها ويمتدحنها ، قالت «دونيا كلارا»:

ـ هذا ما يصدق عليه المثل القائل: شعر من ذهب، وعينان من زمرد.

كانت الجارة ـ مختلجة الأعضاء والمفاصل ـ تدقق النظر فيها من أسفلها إلى أعلاها، استرعى انتباهها خال صغير على ذقن الفتاة

فلم تتمالك نفسها وعبرت عن إعجابها بصوت عال:

- أي، ياله من خال! فى هذه الشامة تتعثر كافة العيون ولا تستطيع النظرات تجاوزها بسهولة.

كان موجوداً على مقربة منها الطواشى[١٥] (خادم دونيا كلارا، وهو رجل مسن ذو لحية طويلة) فعلّق على ملاحظتها قائلاً:

- أتُسمِّين هذه شامة، يا سيدتى ؟ ورغم أننى لا أفقه كثيراً فيها إلا أنها لا تبدو شامة عادية، بل جدثًا للرغبات المتأججة، ياالله ، كم هى جميلة! لو كانت مصنوعة من الفضة أو الحلوى لما بلغت ما هى عليه الآن، أتعرفين قراءة الكف يا صبية؟

- بثلاثة طرق أو أربع - أجابته بريثيوثا.

- وهل هناك غيرها ! - ردت دونيا كلارا - استحلفك بحياة الملازم زوجى، اقرئيه لى، يا فتاة من الذهب، من الفضة الخالصة، من اللؤلؤ، من الزمرد والياقوت ، بل يا قطعة من السماء، ولا أدرى ما يمكننى مناداتك به بعد ذلك.

عندئذ تدخلت العجوز قائلة:

- سلمى راحتك للفتاة وأعطيها نقوداً كى تستخدمها فى الإشارة عليها بعلامة الصليب، وسترين كم الرؤى التى ستنهال عليك، إنها تفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما يعرفه دكتور فى الطب.

مدّت امرأة الملازم يدها إلى جيبها وفتشت فيه فلم تخرج بفلس واحد، طلبت ربع ريال من خادمتها فلم تجد ريحه مع واحدة منهن، ولا مع الجارة أيضاً.

كانت بريثيوثا ترقب عن كثب ما يجرى فانبرت قائلة:

ـ مهلاً ، سيداتى الفضليات ، الإشارة بعلامة الصليب محمودة بأية قطعة نقدية، لكن الذهب يأتى فى المرتبة الأولى ومن بعده الفضة ، أما العملة النحاسية فإنها ، على الأقل فى قراءاتى، تقوض الحظ وتفت فى عضده، ومن ثم فإننى جد راغبة فى استخدام إسكودو ذهبيًا فى الإشارة بالصليب الأول، فإن تعذر فبريال صحيح، فإن تعذر فبنصف ريال، وهذا أضعف الإيمان، أنا ، أيتها المحترمات، مثل سدنة الكنيسة، كلما ثمن القربان كلما أُجزل الثواب.

التفتت الجارة إلى الخادم وسألته:

ـ ألا أجد معك نصف ريال يا «كونتريراس» أعره لى، وسأرده لك فور عودة الدكتور زوجى.

ـ نعم لدى ـ أجاب الخادم ـ لكنه مرهون باثنين وعشرين مرابطيًا[١٦] قيمة العشاء الذى تناولته ليلة أمس ، أعطنى قيمة الرهن وسأحضر لك نصف الريال قبل أن يرتد إليك طرفك.

ـ ما عهدناك إلا وقحًا يا كونتريراس ـ قالت دونيا كلارا ـ لا نملك نصف ريال وتطلب اثنين وعشرين مرابطيًا، امش من هنا.

عندما لاحظت إحدى الفتيات الموجودات إفلاس الدار وشدة جدبها سألت بريثيوثا:

ـ اسمعى ، يا صبية، أيصلح كُشتبان[١٧] من الفضة لرسم علامة الصليب؟

ـ فى الماضى ـ ردت بريثيوثا ـ كانت كشتبانات الفضة تستخدم

فى رسم أفضل الصلبان فى العالم، مادامت عديدة.

- لدى فقط واحد منها - ردت الفتاة من فورها - إذا كان يفى بالغرض فإليك به، شريطة أن تقرئى لى طالعى أيضاً.

- بكشتبان واحد قراءات متعددة للكف! - تعجبت الغجرية العجوز

- انته سريعاً يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وظلام الليل يقترب.

أخذت بريثيوثا الكشتبان ومعه يد زوجة الملازم ثم قالت:

- أيتها الجميلة المتأنقة،

يا من يداها من الفضة الخالصة،

يهواك زوجك أكثر

من عشق ملك البشرات لإماراته،

أنت حمامة وادعة،

وعندما يساورك الغضب

تبدين مثل لبؤة «أوران»،

أو مثل فهد «أوكانيا».

لكن الغضب الذى انتابك

فى لحظة ينفك عنك،

لتصبحى قطعة حلوى،

أو نعجة أليفة مسالمة.

تتشاجرين كثيراً وفى الطعام زاهدة:

تسيطر عليك بعض الغيرة

مما إذا كان الملازم عابثاً،

وبالعصا تريدين إخافته.
أحبك عندما كنت آنسة
أحد أصحاب الوجوه الصفيقة،
ما يجره الوسطاء من سوء
يفوق ما عصفت به اللّذات.
لو اخترت الدير بعدها
لأصبحت اليوم رئيسته،
فمن صفات رئيسة دير الراهبات
تجمعت فيك ما يزيد عن أربعمائة.
لا أود الإفصاح عما أراه..
لضآلة أهميته، يا للهول:
ستصبحين أرملة، علاوة على مرة ثانية،
ومرتين مثلهما، تكونين متزوجة.
لا تبكى أيتها السيدة،
فنحن نعاشر الغجريات
لا ننطق دومًا بالأخبار الطيبة،
كفكفى دمعك واصمتى.
لأنك ستقضين نحبك أولاً
قبل السيد الملازم، يكفيك هذا
للعلاج من ضر الترمل
الذى يمسك بخناقك.

عما قريب، سترثين دون شك،
ثروة عظيمة هائلة،
سترزقين بابن كاهن،
خامل الذكر فى الكنيسة.
يستحيل أن تكون من طليطلة.
ابنة شقراء وبيضاء
سيهبك الرب، لو كانت متدينة
ستصبح راهبة ذات منزلة.
لو لم يمت زوجك
فى غضون أسابيع أربعة،
سترينه مأموراً قضائياً
على برغش، وربما شلمنقة.
لديك خال، ما أروعه!
أى، يسوع، ياله من قمر وضاء!
يالها من شمس، تضىء هنالك فى الجهة المقابلة
من سطح الأرض الوديان المظلمة!
أكثر من ضريرين لرؤيتك
يدفعون ما يزيد عن فلوس أربعة،
الآن وأنت غنية موسرة!
يالها من مزحة رائعة!
توخى الحذر من السقطات،

على الظهر بصفة خاصة،
لأنها عادة ما تكون خطيرة
فى الهوانم المتأنقات.
مازال فى جعبتى الكثير،
لوانتظرتنى يوم الجمعة
سأسمعك فيضاً منه، بعضه يسر الخاطر،
وأغلبه كوارث ومحن.

عندما انتهت بريثيوثا تأججت الرغبة لدى الحاضرات لمعرفة حظوظهن ، لكنها أمهلتهن إلى يوم الجمعة، فوعدنها بالانتظار فى الموعد المحدد ومعهن ريالات من الفضة للإشارة بعلامة الصليب.

فى تلك الأثناء وصل السيد الملازم فحكيت له عن أعاجيب الغجرية الصغيرة، جعلها ترقص بعض الوقت وتأكد من صدق ثنائهن عليها. دس يده فى جيبه ـ كأنه سيتحفها بشىء ـ لكنه بعد أن فتش فيه عدة مرات وقلبه بطناً لظهر أخرجها فى النهاية خاوية الوفاض وقال:

ـ يا إلهى، لا يوجد فلس واحد أعطها يا «دونيا كلارا» ريالاً وسأرده لك فيما بعد.

ـ ياله من طلب! ـ ردت عليه ـ لقد حاولنا تجميع نصف ريال وباءت المحاولة بالفشل وتأتى الآن لطلب ريال صحيح!

ـ أعطها إذن سروالاً قديماً أو شيئاً آخر مما عندك، عندما تعود بريثيوثا لزيارتنا فى يوم آخر سنجزل لها العطاء.

ردت «دونيا كلارا» على الفور:

- مادامت ستعود مرة أخرى فلنرجىءالعطية لحين عودتها.

- إذا لم تقدموا إلى شيئًا لن أحل بهذه الدار ثانية، ولن أتطوع بخدمة كبراء القوم أمثالكم حتى أوفر على نفسى عناء انتظار المقابل لمجهودى، مد يدك للرشاوى يا سيادة الملازم، ارتش وستجد المال متوافرًا لديك، ولا داعى للتمسك بأهداب الفضيلة فتقضى نحبك جوعًا، لقد تناهى إلى سمعى هنا (وأعلم - رغم ضآلة سنى - أنها أقوال لا تمت إلى الحسن بصلة) أن الوظائف تفيد فى استخراج المال اللازم لرشوة القضاة من أجل الحصول على منصب أعلى.

- هذا ما يقوله ويفعله أصحاب الضمائر الخربة - رد الملازم بحدة

- لكن الأداء الجيد للعمل هو الذى يرقى بصاحبه لا الرشوة والمحسوبية.

- تتحدث بشفافية ومثالية يا سيادة الملازم - قالت پريثيوثا - وكأنك لا تعيش فى عالمنا هذا.

- تعرفين الكثير يا صبية - قال الملازم - سأرفع أمرك إلى صاحبى الجلالة لأن مكانك الطبيعى عندهما.

- لأصبح مهرجة هناك - ردت پريثيوثا - هذا ضد طبيعتى، ولو فعلته خسرت كل شىء، لو أرادانى مستشارة فليعجلا بحملى إلى هناك، علمًا بأن الفلاح فى غالبية القصور يكاد يكون حكرًا على المهرجين دون الحكماء، حالى يرضينى هكذا: غجرية فقيرة، وليمض الحظ السعيد هانئًا إلى حيث شاءت له الأقدار.

ـ حذار ، أيتها الصبية ـ تدخلت العجوز ـ لا داعى للتمادى، لقد تحدثت كثيراً ويبدو أنك تعلمين أكثر مما علمته لك، لا تسترسلى فى العميق من الأفكار حتى لا يوردك لسانك مورد الهلاك، تحدثى فيما يناسب سنك ولا تدسى أنفك فيما عظم من الأمور حتى لا تسقطى على أم رأسك من حالق.

ـ اللعنة! ـ قال الملازم ـ إبليس نفسه يتلبس أجساد هؤلاء الغجريات.

أدت الغجريات التحية، وعندما هممن بالانصراف قالت فتاة الكشتبان:

ـ اقرئى لى طالعى يا بريثيوثا أو ردى على كشتبانى لأنى أعمل به.

ـ اعتبرينى قرأته لك ـ ردت بريثيوثا ـ وعليك بشراء آخر أو الامتناع عن التطريز حتى يوم الجمعة القادم لأننى سأعود فيه وأمطرك بوابل من الأخبار السعيدة والمغامرات التى لا نظير لها فى كتب الفروسية.

مشين ، انضممن بعد ذلك ـ توخيا للأمن والسلامة ـ إلى طابور الفلاحات وفتيات الخدمة اللاتى يغادرن مدريد عادة ساعة صلاة المغرب فى طريقهن إلى بيوتهن بالقرى المجاورة. (هذا لأن الغجرية العجوز كانت تعيش فى رعب مستمر من احتمال السطو على بريثيوثا واختطافها عنوة)

ذات صباح ، وهن فى الطريق إلى مدريد لمارسة نشاطهن فى

جمع الجباية[١٨] شاهدن - فى وادٍ صغير يبعد عن المدينة حوالى خمسمائة خطوة - فتى رشيقًا بهى الطلعة واقفًا فى منتصف الطريق بكامل عدته الحربية، كان يحمل سيفًا ودرقة يلمعان بشدة وكأنهما - على رأى القائل - جذوة من الذهب، ويضع فوق رأسه قبعة يتدلى منها شريط جميل ومزدانة بريش متعدد الألوان، تلكأت الغجريات لرؤيته وأنعمن فيه النظر مبهوتات من وقوف شاب جميل مثله فى ذلك المكان وفى تلك الساعة من الصباح.

اقترب منهن وتحدث إلى الغجرية العجوز قائلا:

- أستحلفك بحياتك، أيتها الصديقة، أن تتكرمى وتعطينى الفرصة لأحدثك آنت و«بريثيوثا» على انفراد بكلمتين لصالحكما.

- إذا لم نبتعد كثيراً أو نتأخر فعلى الرحب والسعة - ردت العجوز.

نادت على حفيدتها ، ثم انتحوا جانبًا لمسافة عشرين خطوة، وهكذا - وهم وقوف - أخبرهما الفتى بما يلى:

- لقد ملك على زمام نفسى جمال بريثيوثا وحصافتها فبذلت قصارى جهدى لأتخلص من إسار هذا الهوى حتى لا أتلظى بنيرانه، لكننى فشلت فى النهاية ولم أستطع التملص منه وأصبحت أكثر رضوخًا واستسلامًا عن ذى قبل، أنا، يا سيدتى - وسأظل أناديكما هكذا إذا حققت السماء ما أصبو إليه - فارس كما تريان (وأزاح عندئذ عباءته فأبان على الصدر شارة للفروسية تعتبر من أفضل الشارات فى أسبانيا) أنا ابن فلان - ولاحترامى الشديد له لا أعلن

الآن عن اسمه ـ أنا ابنه الوحيد الذى أوصى له بثرواته وأملاكه العريضة، والدى هنا فى العاصمة، تقدم لمنصب كبير، وينتظر قرار الملك الذى سيكون فى صالحه دون شك باستقراء كافة الدلائل، واعتماداً على هذه الصفة وتلك النبالة ـ ومن واجبى التطرق إليهما بتوسع فيما بعد ـ تنتظرنى مكانة عظيمة أود أن أرفع إليها أصول بريثيوثا المتواضعة وأجعلها مساوية لى وزوجة، أنا لا أطلبها للسخرية منها لأن الحب الذى أكنه لها لا يخامره أدنى شعور بالاستهزاء ، بل أريد خدمتها بالطريقة التى تعجبها ، فإرادتها هى إرادتى. ستكون روحى لها بمثابة الشمع الذى تطبع عليه كل ما يحلو لها ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا الختم والإبقاء عليه أبد الدهر سيكون مثل المنحوت على الرخام، بصلابته التى تقاوم تواتر الأزمان، لو صدقتما كلامى سأوصد كافة الأبواب فى وجه أى تردد أوانتظار، أما إذا تطرق إليكما الشك فستظل ريبتكما تنغص على حياتى ، اسمى كذا ـ وأخبرهما به ـ وقد حدثتكما عن والدى. الشارع الذى نقطن فيه وعنوان بيتنا هوكذا وكذا، ولدينا بالطبع جيران يمكن سؤالهم، بل بإمكانكما سؤال من ليسوا لنا بجيران لأننا غير مجهولين ومعروفون فى كل أنحاء المدينة وفى ردهات القصر الملكى ذاته، أحضرت لكما مائة إسكودو ذهبية عربوناً لنيتى الحسنة وفاتحة لما أفكر فى تقديمه لكما بعد ذلك، فمن يحب لا يضن بماله وضياعه على واهبة الروح.

كانت بريثيوثا تصغى باهتمام بالغ لحديث هذا الفارس الشاب.

ولابد أنها صدقت كل كلمة تفوه بها وفور انتهائه من حديثه اتجهت نحو جدتها قائلة:

- معذرة، يا جدتى، لو سمحت لنفسى بالرد على هذا الصب العاشق.

- لك ما تريدين يا حفيدتى، فأنت أهل لجميع المواقف.

قالت بريثيوثا:

- أنا ، يا سيدى الفارس، رغم كونى غجرية فقيرة، متواضعة النشأة إلا أن خيالى الخصب الموجود هنا بداخل رأسى يحملنى إلى أجواء بعيدة وأشياء عظيمة، أنا لست ممن تحركهم الوعود ولا تضعفهم الهبات ولا تحنيهم العواصف ولا تقض مضاجعهم كلمات الحب المعسولة، ومع أننى سأتم الخامسة عشرة فى سان ميجيل القادم - طبقًا لحساب جدتى - إلا أننى أفكر مثل الطاعنين فى السن وأصل بعقلى إلى أبعد مما تسمح به سنوات عمرى، وهذا مرده للفطرة أكثر من الخبرة، وبهذه وتلك معا أدرك أن نزوات العشق فى المحبين الجدد مثل الشطحات السائبة التى تجعل الإرادة تثب من مكمنها لتتخبط فى غيِّها وتنساق دون رويَّة خلف رغبتها، متوهمة أنها ستدرك النعيم المقيم فى حين أنها ستتلظى بالهموم والأحزان. وعندما تظفر ببغيتها سرعان ما يفتر حماسها ويتراجع لامتلاكها للشىء المرغوب فيه، وربما لو فتحت عينيها على صوت العقل لأدركت حينذاك أنها تبغض ما كانت تتبتل فى محرابه، لقد جعلنى الخوف مما تقدم ذكره شديدة التحفظ لدرجة عدم تصديق أية كلمة

والارتياب فى كثير من الأفعال، أنا لا أملك سوى جوهرة واحدة: العذرية وما تستوجبه من عفة، وهى عندى أغلى من الحياة ذاتها، ومن ثم لا ينبغى التفريط فيها مقابل الوعود أوالهبات لأنها لو أصبحت فى النهاية قيد البيع أو الشراء فقدت ما لها من قيمة، ولذا فلم تسلبها منى المكائد ولا النزوات الطائشة: فأنا أفضل الذهاب سليمة معها إلى القبر - وربما إلى السماء - على جعلها عرضة لخطر الدعس أوالعبث من جانب الأشواق المتأججة والخيال الحالم، يمكن تخيل العذرية - مع الفارق الكبير فى التشبيه الذى ينتقص من قدرها - وردة رقيقة يانعة، لو قطفت من على غصنها الرطيب، فيالسهولة وسرعة ذبولها! يلمسها هذا، وذاك يشمها، وثالث يعبث بأوراقها، وتكون المحصلة: ضياعها بين الأصابع الخشنة القاسية، إذا كنت قادمًا ، أيها السيد، من أجل هذه الدرة، فلن تحملها إلا مغلولة بقيد الزواج، إذ لو كان على العذرية الانحناء فلا ينبغى أن يكون إلا لهذا النير المقدس، لأنها لن تصبح مفقودة عندئذ، بل مستخدمة فيما خلقت من أجله وفيما أحلَّه الرب من بهجة، إذا كنت تنوى الزواج بى، سأكون خليلتك ، لكن هذا لن يتم إلا بشروط واختبارات مسبقة: يجب التأكد أولا مما إذا كنت بالفعل ذلك الشخص الذى تدعيه، وبعد التحقق من هذا عليك ترك منزل والديك والانتقال للعيش معنا فى مضاربنا، وارتداء ملابسنا، والدراسة سنتين فى مدارسنا، وخلال هذه الفترة ستعرفنى أكثر، كما سأعرفك ، فى نهاية السنتين، إذا أعجبتك خصالى وأعجبتنى خصالك أصبح زوجتك ، وإلى أن يحين

ذلك الوقت يجب أن تعاملني كأخت لك، وأنا من جهتي سأخدمك بعيني، ضع في اعتبارك أن فترة الخطبة هذه يمكن أن ترد إليك رشدك المطلوب حاليا - أو المشوش، على الأقل - وتجعلك تولي الأدبار مما تتعقبه الآن بإصرار ، وكما يقال: فإن استرداد الحرية السليبة بتوبة نصوح يعفي من الذنوب الثقال، إذا كنت بهذه الشروط مستعداً للتطوع جنديًا في ميليشياتنا، فالقرار لك، أما الإخلال بواحد منها فيعني الفراق بيني وبينك.

بُهت الفتى وأطرق إلى الأرض في ذهول محاولاً التفكير فيما سيجيب به، ولما لاحظت بريثيوثا ذلك واصلت حديثها قائلة:

- التفكير في هذه المسألة الخطيرة يتطلب وقتًا طويلاً لا يتسع له المقام، عد إلى المدينة وتدبر على مهل ما يناسبك، وعندما تستقر على رأي يمكنك مقابلتي في هذا المكان أثناء ذهابي إلى مدريد أو عودتي منها.

أجاب الفتى المهذب قائلاً:

- عندما أنعمت علي السماء بنعمة حبك عقدت العزم ساعتها على الإتيان بكل ما يعن لك، لكن لم يدر بخلدي إطلاقًا أنك ستقدمين على طلب شيء كهذا ، ومع ذلك، ولأن هواي يوافق ما تمليه إرادتك، بإمكانك اعتباري غجريًا من هذه اللحظة، وبوسعك اختباري كافة ما شئت وستجدينني على العهد قائمًا في ثبات، كما يمكنك من الآن تحديد موعد تغيير لباسي هذا لأنني بصدد الذهاب إلى «فلاندس» (Flandes)[١٩] وسأنتهز الفرصة لتغيير مسار رحلتي التي ستبدأ

بعد ثمانية أيام دون علم والدى .وسأقضى هذه الأيام فى المدينة دون إثارة الشبهات، وسأرحل مع الذاهبين إلى الحرب لكننى سأخدعهم فى الطريق وأغير وجهتى ، كل ما أرجوه منك خلال هذه الفترة - إن جاز لى التجاسر وطلب شىء منك - هو التعجيل بالسؤال عنى وعن أهلى اليوم أو غدا ، وعدم الذهاب بعد ذلك لأبعد عن مدريد لأنى أخاف أن تواتيك فرصة عرض آخر فتنصرفين عنى وتركيننى أزفر الحسرات.

- أما هذا فلا ، يا سيدى العاشق - ردت بريثيوثا - أعلم أننى مثل الطائر الذى يريد التنعم بحريته بعيداً عن طوفان الغيرة الحمقاء، وعليك أن تفهم أننى لست بضاعة تباع وتشترى فى الأسواق، ومن ثم فأول درس يجب أن تعيه هو ضرورة الثقة المطلقة بى، فالمحبون الذين يستهلون سيرتهم بالغيرة إما أن يكونوا سُذَّجا أومغفلين بسطاء.

علقت الغجرية العجوز على كلام حفيدتها بقولها:

- إبليس نفسه هو الذى يسكن جوانحك أيتها الفتاة: تتفوهين بأشياء لاتخطر ببال طالب علم فى شلمنقة ! تتكلمين بعمق فى الحب والغيرة والثقة بالآخر: ألا ترين أنك بهذا تدفعيننى إلى الجنون وتجعليننى كالطرشاء فى الزفة أو مثل شخص ممسوس يتشدق باللاتينية دون أن يعرفها؟

- صه ، يا جدتى ، واعلمى أن ما سمعته منى حتى الآن مجرد سفاسف وقشور ، مقارنة بما ينطوى عليه صدرى من عظائم الأمور.

ما سمعه الفتى كان بمثابة إضافة المزيد من الحطب إلى النيران المستعرة فى قلبه، تواعدا فى النهاية على اللقاء بالمكان ذاته بعد ثمانية أيام: لكى يخبرها بعدها بقراره النهائى، ولكى تتأكد خلالها من المعلومات التى أدلى بها عن نفسه، أخرج الفتى كيسًا من الاستبرق وأعطى المائة إسكودو المشار إليها للعجوز، لكن بريثيوثا طلبت منها ردها إليه وعدم قبولها بأى شكل من الأشكال، فما كان من العجوز إلا أن سلقتها بلسانها الحاد على النحو التالى:

- «نقطينى» بسكوتك، يا صبية، فأبلغ دليل على استسلام هذا السيد هو تنازله عن سلاحه ، واليد العليا تحت أى ظرف من الظروف خير من اليد السفلى، وهى علامة ناصعة على أريحية صاحبها وسخائه، ولا تنسى المثل القائل: «إلى الله أبتهل، وبالعمل الشاق أشتغل» هذا بالإضافة إلى أننى لا أريد أن تفقد الغجريات بسببى شهرتهن التى اكتسبنها طوال قرون عديدة فى أنهن جشعات ونهازات للفرص، أتريدين منى رفس مائة إسكودو من الذهب الخالص قد يستعملها الموسرون فى تطريز تنورة لا تساوى ريالين وأجدها ماثلة أمامى وكأن «طاقة» القدر قدفتحت لى ؟ وإذا سقط لجرم ما واحد من أبنائنا أو حفدتنا أو عشريتنا فى يد العدالة،فهل سيشفع له القاضى وكاتب العدل كما ستشفع هذه النقود عندما تصل إلى كيسيهما ؟ لقد كدت، لثلاث مرات، على وشك امتطاء حمار فى طريقى إلى الجلد، على ثلاث جرائم مختلفة، وخلصتنى من الأولى «فازة» من الفضة، ومن الثانية عقد من اللؤلؤ، ومن الثالثة أربعون

ريالاً غيرتها أنصافًا وخسرت فى التغيير عشرين ريالاً أخرى أخذوها عملوة، يا حفيدتى، إننا نمارس مهنة محفوفة بالمخاطر ، مفعمة بالعثرات والمكدرات، ولا توجد دفاعات تحمينا وتقيلنا من عثراتنا سوى أسلحة «فيليب» العظيم التى لا تقهر: فبواسطة «دبلون»(٢٠) ذى وجهين يبش لنا نائب القاضى العبوس وكل زبانية الموت الذين يكشرون لنا عن أنيابهم ويسلخون جلدونا ويبتزوننا أكثر من قُطاع الطرق، ومهما شاهدونا حفاة وعراة مترعين بالنوائب لا يعتبروننا أبدا فقراء، فهم يقولون إننا مثل صديرى سكان بلمونت من الجباتشو(٢١) : ممزق وملطخ بالشحوم لكنه مكتظ بالنقود.

- كفى ، يا جدتى ، فأنت لديك من الأسباب للاحتفاظ بالنقود ما يفوق الأباطرة ، احتفظى بها، مع تمنياتى بحسن الاستفادة منها. ادفنيها فى مكان آمن مع الابتهال للرب بألا تعود لرؤية ضوء الشمس ثانية، وألا تدعوك ضرورة لاستخراجها ، أما بالنسبة لزميلاتى فأرى أن الواجب يقتضى إعطاءهن شيئًا، فقد تحملن طول الانتظار ، ولابد أنهن غاضبات.

- لن يروا وميضها - ردت العجوز بحدة - سيتكرم هذا السيد المعطاء بتفتيش حافظته علّه يجد عملات فضية أوزعها عليهن، فهى وإن كانت قليلة إلا أنها ستدخل السرور عليهن جميعًا.

- نعم معى - رد الفتى العاشق.

استخرج من حافظته ثلاثة ريالات قامت العجوز بتوزيعها على الغجريات الثلاث ففرحن بها فرحًا يفوق حبور ممثل كوميدى انتصر

على منافس له وكافأه الجمهور بالهتاف والتصفيق الحاد.

لقد اتفقا ـ باختصار ، وكما وردت الإشارة ـ على اللقاء بعد ثمانية أيام، وعلى تسمية الفتى العاشق: «أندريس كابابيرو»[٢٢] ، إذ يوجد من بين الغجر أيضاً من يتحلى بهذا اللقب.

لم يجرؤ أندريس (وسنشير إليه من الآن فصاعداً بهذا الاسم) على معانقة بريثيوثا ، واكتفى بتشييعها بروحه ـ إن جاز لنا استخدام هذا التعبير ـ ثم يمَّم وجهه شطر مدريد وتبعته الغجريات وهن فى غاية السرور ولدماثة الفتى اهتمت بريثيوثا ـ من منطلق الاستلطاف لا الحب ـ بالتحقق من المعلومات التى ساقها عن نفسه، دخلت مدريد، وبعد اجتيازها لعدة شوارع رآها الوصيف الشاب الذى أهداها القصيدة والإسكودو فاتجه نحوها ونادى عليها:

ـ أنعم الله عليك بالخير، يا بريثيوثا: هل قرأت القصيدة التى سلمتها لك منذ عدة أيام؟

ـ قبل أن أجيب بنعم أو بلا ، أستحلفك بحياة من تحب أن تخبرنى بالحقيقة.

ـ أحلف بكل الإيمان المغلظة أننى سأكون صادقاً ولن أخفى عنك شيئاً ولو كلفنى الصدق حياتى.

ـ ما أرى معرفته يتضمنه السؤال التالى: هل أنت، حقا، شاعر؟

ـ لو كنت كما تقولين، فمن حسن طالعى، أود أن تعرفى أن لقب الشاعر لا يستحقه إلا القليلون فقط، وأنا ـ بحمد الله ـ لست منهم، بل مجرد هاوٍ للشعر ، ومع هذا أنا على استعداد لبذل قصارى

الجهد حتى لا تلجئى لغيرى، ما أعطيته لك هو من نتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضا ،ورغم هذا لست شاعرا ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سيء لهذه الدرجة؟ - سألت بريثيوثا:

الجهد حتى لا تلجئى لغيرى، ما أعطيته لك هو من نتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضا ،ورغم هذا لست شاعرا ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سيء لهذه الدرجة؟ - سألت بريثيوثا:

- ليس سيئًا - رد الوصيف الشاب - لكن ملكة الشعر الخالصة لا تتوفر لدى رغم إجادتى. فالشاعر الحق يصنع من اللغة جواهر نفيسة، ولا يهبط عليه الإلهام على مدار الساعة، ولايعرض موهبته على الرائح والغادى، بل فى الوقت والمكان المناسبين، الشعر، يا صغيرتى ، مثل آنسة حسناء، طاهرة الذيل، عفيفة، حصيفة، حادة ومحتجبة عن العيون، الشعر توأم للوحدة: ترفّه عنه الينابيع، تسلية المروج، تمحو غضبه الأشجار، تبهجه الأزاهير، وفى النهاية يتلذذ به، ويعب من صفائه كل طاعم وشارب.

- أيتحلى الشاعر بهذه الصفات كلها، مع أنهم ينعتونه بالفقر والميل إلى التسول؟

- فيما مضى كان الوضع مختلفًا تماما، فآنذاك لم يكن يوجد شاعر واحد فقير وبل يعيشون جميعًا هانئين فى كنف عبقرية الشعر التى لا تتاح إلا لعددٍ من المصطفين لكن ما الذى دفعك لطرح هذا السؤال؟

- دفعنى إليه علمى بأن كافة الشعراء معدمون، ولذا تملكتنى

الدهشة عندما عثرت على ذلك الإسكودو الذهبى قابعًا فى طيات قصيدتك ، لكن بعد أن عرفت منك الآن أنك لست بشاعر وإنما مجرد هاوٍ فإننى أرجع هذا التصرف من جانبك لاحتمال غناك، وإن كان هذا موضع شك أيضًا لأن هوايتك فى تأليف القصائد كفيلة بإنضاب معين أية ثروة قد تكون لديك، إذ لا يوجد شاعر - حسبما يقال - يعرف الحفاظ على ما لديه من أموال وعروض، ناهيك عن الحصول على ما لا يمتلكه.

- أنا لست من هؤلاء : أقرض الشعر ولست غنيًا ولا فقيرًا، أى بين بين، كحال أهل جنوة مع ضيوفهم: لا هم بالبخلاء، ولا بالكرماء، ومن هنا فبوسعى تقديم إسكودو أو اثنين لمن أريد ، مدى يدك - أيتها اللؤلؤة الغالية ، لتأخذى القصيدة الثانية ومعها الإسكودو الثانى، ولا تشغلى بالك بما إذا كنت شاعرًا من عدمه، أريد فقط أن تكونى على ثقة من أن الذى يفعل هذا معك يتمنى لك كل ما فى هذا العالم من خير.

أعطاها ورقة مطوية، فتحسستها بريثيوثا وعثرت على إسكودو بداخلها، قالت له:

- لابد أن تتمتع هذه الورقة بعمر مديد لأن بها روحين: روح الإسكودو وروح الشعر، ليعلم السيد الوصيف إننى لا أحب أرواحًا كثيرة معى إذا لم يسترد الأولى فلا داعى للحزن إن ردت إليه الثانية، يسرنى التعامل معك كشاعر لا متصدق، وبهذا الشكل ستمتد صداقتنا وتدوم، فالحياة ممكنة بدون الإسكودو مهما كانت

الحاجة إليه، لكنها شبه مستحيلة إذا خلت من الرومانث.

- لك ما تريدين ، احتفظى بالروح الكامنة فى الورقة وناولينى الإسكودو لأننى عازم على الاحتفاظ به - بعدما لمسته يدك - كرقية لسنوات عمرى الباقية.

أخرجت بريثيوثا الإسكودو من الورقة ودست القصيدة فى جيبها لأنها لم ترد قراءتها فى الشارع، ودعها الوصيف الشاب ومضى فى طريقه مسروراً، معتقداً من حديثها الودى أنها وقعت فى غرامه، مضت الغجرية فى طريقها دون أن تتوقف للرقص فى أى مكان لأنها كانت متجهة للبحث عن منزل والد أندريس، وبعد وقت قصير وجدت نفسها فى الشارع الذى تبحث عنه: مشت حتى منتصفه ورفعت رأسها فرأت - حسب الوصف - شرفات من الحديد المذهب، كما شاهدت بداخل إحداها فارسًا ذا مهابة ووقار فى الخمسين من العمر يرتدى ملابس حربية مزدانة على الصدر بشارة ملونة للصليب، التقت نظرتها بنظرة الفارس الذى نادى عليهن:

- اصعدن ، يا فتيات ، وستجدن ما تطلبن من الصدقات.

دخل الشرفة، على صوته، ثلاثة فرسان آخرون بينهم العاشق أندريس الذى امتقع لونه فور رؤيته، «بريثيوثا» وكان على وشك فقدان الوعى للمفاجأة غير المتوقعة التى اصطدمت بها عيناه ، صعدت الغجريات فميا عدا العجوز التى فضلت البقاء فى الدور الأرضى للاستفسار من الخدم عن حقيقة أندريس.

عندما دخلت الغجريات القاعة وجدن الفارس المسن يقول للآخرين:

- لاشك أن هذه هى الغجرية الفاتنة التى تجوب مدريد ويتحدث عنها الجميع

- إنها هى - أجاب أندريس - أجمل مخلوقة رأتها العين.

- هذا ما يدعونه - قالت پريثيوثا التى استمعت لحوارهما السابق أثناء دخولها

- لكنهم مخدوعون فى نصف الحقيقة على الأقل: جميلة نعم، أما رائعة الجمال - كما يقولون - فهذا محض افتراء.

- وحياة ابنى «دون خوانيكو»[٢٣] - رد الفارس العجوز - أنت فى الحقيقة أكثر جمالاً من الوصف وأشد فتنة.

- ومن يكون «دون خوانيكو» هذا؟ - سألت پريثيوثا.

- هذا الفتى الواقف إلى جوارك - أجاب العجوز

- لقد حسبت أن صاحب السعادة يحلف بحياة طفل لا يتعدى الثانية من العمر، ياله من «دون خوانيكو» ويالطوله الفارع! أظنه الآن متزوجًا ، وإن لم يكن فلن تمضِ - كما تشير خطوط جبهته - ثلاث سنوات حتى يكون كذلك وعلى هواه، هذا إذا لم يطرأ عارض جديد خلال هذه المدة يجعله يغير رأيه أو يفقد هواه.

- أتفقه الغجرية أيضًا فى لوحة الحظوظ؟ - سأل أحد الحاضرين.

كانت الغجريات الثلاث اللاتى جئن معها قد انتحين - أثناء ذلك - ركنًا من الصالة وأخذن فى التهامس ، ملتصقات الرءوس - حتى لا يسمعهن أحد، قالت كريستينا لزميلتها:

- ألا تعرفان هذا الفارس؟ إنه الذى أعطانا الريالات الثلاثة صباح اليوم.

- إنه هو - ردت الأخريات - ولكن حذار من التفوه بكلمة أوالتطوع بالفتنة عليه إذا لم يقدم أولاعلى ذلك: ربما يكون راغباً في التستر.

بينما كان هذا الحديث الجانبي يدور بين الفتيات الثلاث أجابت بريثيوثا على سؤال الحظوظ قائلة:

- ما أراه بعيني أخمنه بإصبعي: أرى أن السيد «دون خوانيكو» متيماً بعض الشيء ، مندفعاً وعجولاً، متسرعاً في الوعد بأشياء تبدو مستحيلة ، أتضرع إلى الرب ألا يكون كذوباً لأن آفة الكذب مفسدة لكل شيء، إنه يتأهب للقيام برحلة إلى مكان بعيد جداً، واحد يفكر في الطُّعم والآخر فيمن سيسرجه له، العبد يرتب والرب يدبر، ربما يظن أنه ذاهب إلى Onez فيجد نفسه في Gambon(٢٤).

- لقد أصبت كبد الحقيقة في كثير مما قلته عني، لكنك جافيتها بإدعائك كذبي، لأنني أتحرى الصدق في جميع المواقف مهما كانت العواقب. أصبت في خبر سفري لأنني بالفعل راحل إلى «فلاندس» - خدمة للرب - خلال أربعة أو خمسة أيام، ومع أنك تلقين بظلال الشك على مسار هذه الرحلة إلا أنني أود ألا أصطدم بأية بليّة تعرقل طريقي.

- مهلاً ، أيها السيد - ردت بريثيوثا - وتوجه إلى السماء بالدعاء لكي تكلل مساعيك النجاح، واعلم أنني لا أفقه شيئًا فيما يردده لساني، ولا يعد من قبيل الإعجاز إذا تمخض الكلام الكثير عن الإصابة في أمر من الأمور، ما أردت بكلامي السابق سوى تهدئتك وإقناعك بالبقاء مع والديك لرعايتهما في الشيخوخة، فأنا لا أحبذ

عدوى الرواح إلى فلاندس والعودة منها، لاسيما للشباب الغض من أمثالك، اصبر حتى تشب قليلاً عن الطوق لتتمكن من تحمل أعباء الحرب ومخاطرها، ولديك منها ما يكفى وزيادة وأنت قابع فى أعماق دارك: فمعارك الهوى تحدق بك من كل جانب ، اهدأ ، أيها المفزَّع المستثار، وعليك بالنظر أولاً فى أمر زواجك وفى إعطائنا صدقة، حبًا فى الله وفداء لك، لا يساورنى أدنى شك فى طيب منبتك، ولو خاب ظنى واجتمع إلى عراقة الأصل صدق الطوِّية لغنيت ساعتها ابتهاجًا بالهزيمة فيما وصمتك به.

ـ أخبرتك من قبل ـ قال «دون خوان» أو «أندريس كابايرو» المنتظر ـ إنك محقة فى كل شىء فيا عدا هاجس الخوف من عدم صراحتى وسلامة نيتى، وأنت بلا شك مخدوعة فى هذا المنطق ، كلمتى فى الخلاء أحافظ عليها ـ دون حاجة إلى توجيه من أحد ـ فى المدينة أو فى أية بقعة أخرى على ظهر الأرض: إذ لا يمكن لمن تخالط روحه آفة الكذب الادعاء للفروسية ينسب . سيعطيك والدى صدقة تقربًا إلى الله ومحبة لى، فما كان معى هذا الصباح قدمته لبعض السيدات، ولروعة جمالهن وعذوبة ألسنتهن لاسيما إحداهن ـ لم يبق فى كيسى فلس واحد.

عندما سمعت كريستينا هذا قالت لزميلتها:

أعدم روحى لو لم يكن يقصد ثلاث الريالات التى وزعها علينا هذا الصباح!

استنتاجك فى غير محلّه ـ همست واحدة من الاثنتين ـ لأنه تحدث

عن سيدات، ولسنا كذلك، وبما أنه يتحرى الصدق فيما يقول ـ كما سمعنا ـ فإنه يعنى ما قاله.

* إنها كذبة بيضاء كما يقولون ـ ردت عليها كريستينا ـ : لا تضر أحداً وذات نفع لناطقها، ومع هذا لا أرى أنهم سيجودون علينا بفلس إلا إذا طلبوا منا الرفض.

سمعت الغجرية أثناء ذلك ونادت:

* هيا ، يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وأمامنا الكثير مما يجب عمله وقوله.

* ماذا هناك، يا جدتى؟ ابن أم ابنة؟

* إنه ذكر جميل الخلقة، تعالى وستستمعين إلى حقائق مدهشة.

* تضرعى إلى الخالق ألا أموت من شدة الانفعال.

* ستتحدث على مهل وبكل روية، لقد كان وضعاً طبيعيا حتى الآن، والأمير الوليد مثل الذهب[٢٥].

* هل وضعت إحدى السيدات مولوداً؟ ـ سأل والد أندريس.

* نعم يا سيدى، أجابته العجوز ـ لكن هذا الأمر سرى للغاية ولا يعرف خبيئته إلا أنا وحفيدتى بالإضافة إلى شخص آخر لا يمكن إماطة اللثام عنه.

ـ ولا نريد معرفة شيء عنه هنا ـ تدخل أحد الحاضرين ـ تعيسة تلك ومحزونة التى تضع على ألسنتكن سرها وتستجير بحماكن لشرفها.

ـ لسنا جميعًا سيئات ـ ردت بريثيوثا بانفعال ـ وربما توجد من

بيننا من هى آحفظ للسر من أطول رجل بهذه القاعة. نحن لا نستجدى ، ولسنا لصات آو متسولات.

- لا تغضبى ، يا بريثيوثا - قال والد أندريس - فأنا لا أعتقد أن مثلك يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من سوء، وجهك خير دليل على حسن طويتك ، آستحلفك بحياتك أن ترقصى لنا قليلاً مع زميلاتيك ، فلدى هن دبلون من الذهب لا يستحقه أحد غيرك.

قالت العجوز فور سماعها لهذا العرض المغرى:

- هيا ، يا بنات ، تحزمن وأمتعن هؤلاء السادة.

آخذت بريثيوثا الصناجات ، والتفت حولها زميلاتها وانتظمن فى الرقص، كانت آربطة الأحزمة المتتالية على خواصرهن تتطاير وتنثنى تبعا لدورانهن الرشيق حول آنفسهن ، وخلف أرجلهن كانت تجرى ملتاثة عيون الحاضرين، خاصة عينى أندريس اللتين كانتا معلقتين بقدمى محبوبته وكأنهما تبصران مركز فردوسه، لكنهما سرعان ما تعكرتا وتحولت الجنة إلى جحيم عندما سقطت فى إحدى اللفتات السريعة، القصيدة التى آعطاها الوصيف لبريثيوثا فتلقفتها يد قاسية لاتعبأ بمشاعر الغجريات وقرآت على الفور ما يلى:

- عندما تقرع «بريثيوثا» الدف

وتجرح الهواء الخامل بنغمه العذب،

تنثال اللآلىء من بين يديها،

ومن فمها تنسكب الأزاهير.

من حلاوة أعمالها الخارقة،

المفعمة بالصفاء والعفة والحيوية،
تصاب الروح بالذهول، الرزانة بالجنون،
وتطاول شهرتها السماء العالية.
بأدق شعرة من جدائلها معلقة
ألف مهجة ، وتحت قدميها يلقى
«كيوبيد» بسهامه مستسلماً.
عمياء وبشموسها الجميلة
تضيء ممالك الحب وتمسك بقواعدها،
وما أظن أن جعبتها فرغت من المعجزات.

- تفوح من هذا السونيت رائحة شاعر أصيل - قال الذى قرأه.

- ليس شاعراً - ردت بريثيوثا - بل وصيفاً فى غاية التهذيب والدماثة.

(أنعمى النظر يا بريثيوثا فيما جرى على لسانك وفيما سينطق به لأنه ليس ثناء على الوصيف بل رماحاً ماضية تخترق حشاشة قلب أندريس، إذا كنت لا تصدقين، يا صبية، ارجعى رأسك إذن وستجدينه طريحاً على كرسى، تدور به الأرض، يتصبب عرقاً كعرق من يعانى سكرات الموت، ألم تضعى فى اعتبارك ، يا آنسة ، أنه يحبك لدرجة الجنون، وأن أى تهاون - ولو طفيف - من جانبك يقض مضجعه ويصيبه فى مقتل! وتقدمى منه بضع خطوات وأسرّى فى أذنه بكلمات موجهة مباشرة إلى القلب لكى تعيده من إغماءاته ، احضرى كل يوم سونيتات فى إطرائك وسترين شدة وقعها عليه).

وكما أسلفنا القول فهذا بالضبط ما حدث: تملكت «أندريس» أثناء سماعه للسونيت آلاف من خيالات الغيرة المفزعة، لم يكن قد فقد الوعي كلية، بل امتقع لونه بشكل لافت للنظر مما جعل والده يسأل:

- ماذا جرى، يا بنى؟ أراك ممتقع اللون وعلى وشك الدخول فى إغماءة.

- دعنى - قالت بريثيوثا - أسر فى أذنيه ببضع كلمات، وسترى كيف يثوب إلى رشده سريعًا.

اقتربت منه، وقالت له محركة بالكاد شفتيها:

- يالها من بداية رائعة لغجرى المستقبل ! أيمكنك يا أندريس تحمل عذاب الخنق وأنت لا تقوى على ورقة؟!

قالت له هذا وأشارت عدة مرات بعلامة الصليب على موضع قلبه ثم ابتعدت ، أخذ أندريس شهيقًا عميقًا ثم زفر ببطء متظاهرًا بأن كلمات بريثيوثا قد شفته من وعكته.

تلقت بريثيوثا ، فى النهاية، «دبلون» الذهب فسلمته من فورها إلى صويحباتها وطلبت منهن توزيعه عليهن بالتساوى.. أصر والد أندريس على معرفة كلمات الرقية التى استخدمتها فى علاج ابنه، وأبدى رغبته فى تدوينها، ردت عليه قائلة إنها ستطلعهم عليها بكل سرور ، لكنها حذرتهم من عدم أخذ كلماتها - التى قد تبدو تافهة - على محمل السخرية لأن فائدتها فى الوقاية من أوجاع القلب ودوار الرأس مؤكدة. وبعد هذا التحذير رددت على مسامعهم الآتى:

أيتها الرأس، أيتها الرأس،

تماسكى، لا تتزعزعى،

واستمدى دعامتين

من الصبير اللونعى.

انشدى

الثقة

الجميلة

لا تميلى

نحو الخواطر الدنيئة

ستبصرين رؤى

تطاول المعجزات

الرب فى المقدمة

و«سان كريستوبال» من الجبابرة

- بنصف هذه الكلمات - أردفت پريثيوثا - مع الإشارة بعلامة الصليب عدة مرات على محل قلب الشخص المصاب بدوار الرأس ينهض سليمًا معافى كالحصان.

بهتت العجوز عند سماعها كلمات الرقية وفهمها لخدعة، كما اعترى أندريس الذهول من قدرتها الفائقة على التصرف وعبقريتها الحادة، تركت لهم بريثيوثا السونيت ولم تطالب به حتى لاتزيد الطين بلة: إذ كانت تدرك بفطرتها - دون تعلم - ما يعنيه إذكاء نيران الغيرة فى نفوس المحبين الخلنعين.

استأذنت الغجريات ، وعندما هممن بالانصراف قالت بريثيوثا لدون خوان:

- جميع أيام هذا الأسبوع مباركة للسفر، ولا يوجد بينها يوم واحد مشئوم، تنتظرك حياة عريضة، لذيذة ومفعمة بالحرية، فعجل بالرحيل قدر ما تستطيع طالما قررت اتخاذها.

- حياة الجندية لا تتسم بالحرية المطلقة كما تظنين - رد عليها «دون خوان» - بل إن أهم بنودها يكاد مقصوراً على ما فيها من قيود، ومع هذا سأعمل بمشورتك.

- الأفضل - قالت بريثيوثا - الاعتماد على ما يهديه إليك تفكيرك ، تصحبك السلامة - ذهاباً وعودة، لأن مثلك يستحقها.

أدخلت الكلمات الأخيرة السرور على أندريس، كما مضت الغجريات ووجوهن مشرقة بالبهجة .. قمن بعد ذلك بتبديل «دبلون» الذهب إلى وحدات نقدية أصغر ووزعنها بينهن بالتساوى، باستثناء العجوز التى تزيد حصتها دائماً بمقدار النصف عن الآخريات نظراً لكبر سنها ولأنها ضابطة إيقاع أنشطتهن حتى ما يتعلق منها بالاحتيال والخديعة.

وفى صبيحة أحد الأيام ظهر «أندريس كابييرو» - بمفرده ، دون خادم - على ظهر بغلة مكتراة فى مكان اللقاء الأول، استقبلته «بريثيوثا» وجدتها - اللتان كانتا تنتظرانه هناك، حسب الاتفاق - بحفاوة بالغة، استحثهما على اقتياده إلى وكر الأخوية قبل أن يتقدم النهار ويتنبه رفاقه فى السفر لغيابه فيجدّوا فى طلبه . رجعتا معه ،

وبعد وقت قصير تراءت لهم الأكواخ الصفيح.

أدخلا أندريس أكبر كوخ فى المعسكر، وعلى الفور حضر لرؤيته حوالى اثنى عشر شاباً رشيقاً كانت الغجرية العجوز قد أبلغتهم نبأ الوافد الجديد الذى سينضم إليهم، لكنها لم تنبس ببنت شفة عن السر الكامن فى صدرها وتحافظ عليه ـ ومعها بريثيوثا وأندريس ـ بدهاء وحنكة منقطعى النظير، عندما شاهدوا البغلة انبرى أحدهم قائلاً:

يمكننا بيع هذه فى سوق الخميس بطليطلة.

أما هذا فلا ـ رد أندريس ـ فهى مكتراة وسيتعرف عليها بسهولة كل البغّالين الذين يجوبون أسبانيا.

ـ يالسلامة نيتك ، يا سيد أندريس ! ـ أضاف غجرى آخر ـ لو كانت هذه البغلة تحمل جميع العلامات التى يمكن اختراعها إلى يوم القيامة فباستطاعتنا تغيير شكلها بحيث لا تتعرف عليها أمها التى ولدتها أو صاحبها الذى رباها.

ـ ومع هذا ـ رد أندريس ـ ينبغى هذه المرة تنفيذ ما أراه ، ألا وهو قتلها ودفنها بمكان آمن لا تظهر فيه حتى عظامها.

تدخل عندئذ غجرى ثالث قائلاً:

ـ ذنب عظيم! أتزهق روحاً بريئة؟ لا يقول بمثل هذا الصالح أندريس، بل يتفضل بعمل شىء آخر: يتأملها جيداً ، على مهل، حتى تنطبع صورتها وكل علاماتها فى ذاكرته، وبعد ذلك يتركها لى، ولو عرفها بعد ساعتين من الآن فلتنبح على الكلاب مثل زنجى آبق.

- مازلت أصر - قال أندريس - على ضرورة مغادرة البغلة للحياة مهما اجتهدتم في سوق التأكيدات بتغيير هيئتها، أخاف اكتشافها إذا لم يوارها التراب. لو كنتم تفعلون هذا طمعًا فيما ستربحونه من وراء بيعها فأنا لم آت عاريًا تماما(خاوي الوفاض) إلى هذه الأخوية بحيث لا يمكنني تقديم ما يزيد على أربعة أمثال ثمنها رسم دخول(٢٦) إلى مضاربكم.

- إذا كان هذا ما يريده السيد أندريس - قال أحدهم - فلتمت المسكينة إذن دونما ذنب أو جريرة، ويعلم الله مدى أسفي على مصيرها الظالم، فهي ما تزال غضة فتية: لم يذهب نور بصرها (وهذا شئ غير معتاد في البغال المخصصة للإيجار) رغم غشيانها المستمر للطرق، ولم تظهر على خاصرتيها أية بثور أو تقرحات تحت المهمازين.

أجّلوا موت البغلة لحلول الليل، وفيما بقي من النهار أقاموا احتفالاً بمناسبة تعميد أندريس غجريًا : أخلوا أفضل كوخ عندهم، ونظفوه من المخلفات ثم زينوه بالأغصان ، ونباتات السعد العطرة، أجلسوا أندريس على نصف جذع شجرة سنديان وهو يمسك مطرقة بإحدى يديه ، وبالأخرى كماشة، وعلى نغمات دفَّين شرع في قرعهما غجريان جعلوه يثب «متشقلبا» مرتين في الهواء، قاموا بعد ذلك بتعرية أحد ذراعيه ورسموا عليه وشمًا خفيفًا بنبتة من شجر الزيتون ثم لفوه بشريط جديد من الحرير.

شهدت بريثيوثا جميع وقائع الاحتفال بصحبة غجريات أخريات -

شابات وعجائز ـ كان البعض ينظر إليه مفتونًا والبعض الآخر بحب وشغف، ذلك لأن وسامة أندريس كانت كفيلة بسحر ألباب الجميع حتى الغجريات.

عندما انتهت مراسم الاحتفال تقدم غجرى طاعن فى السن وأخذ پريثيوثا من يدها ثم وقف معها قبالة أندريس وألقى بالكلمات التالية:

ـ هذه الفتاة ، التى تعد بحق أيقونة الجمال الغجرى فى طول البلاد وعرضها، نقدمها لك كزوجة أو صديقة، وفى كلتا الحالتين لك عليها ما شئت من السلطان، هذا لأن الحرية المطلقة لحياتنا لا تعبأ بأغلال التصنع أو المراسم والطقوس المضجرة... تأملها جيداً ، وانظر فيما إذا كانت تعجبك ، إذا رأيت فيها شيئًا لا يروقك فإليك عنها واختر غيرها من بين الحاضرات هنا، من تختارها سنعطيها لك، لكن يجب أن تعلم أن التى سيستقر عليها رأيك الآن لا يمكنك استبدالها بعد ذلك أو الجمع بينها وبين أخرى، متزوجة كانت أم آنسة، نحن نحافظ على قانون الصداقة ولا نتخطاه: لا يرتع أحدنا فى حمى غيره، ونعيش ـ بهذا الشكل ـ متخففى الكواهل من وباء الغيرة البغيض. بيننا ـ رغم انتشار غشيان المحارم ـ لا توجد حالة خيانة واحدة. لا نذهب للعدالة طلبًا للقصاص عند اكتشاف خيانة الزوجات أو الصديقات لأننا القضاة والجلادون: نقتلهن دونما عناء وندفن جثثهن فى الجبال والفلوات مثل الحيوانات الضارة، مطمئنين لعدم سعى قريب للأخذ بثأرهن أومطالبة الآباء بدمائهن، وتحت وطأة الخوف من هذا المصير يتوخين العفة، ونعيش نحن بالتالى ـ كما

سبق وذكرت ـ مطمئنين مرتاحى البال، قليل مما نملكه ليس مشاعًا بين الجميع ، وفى مقدمته تأتى الزوجة والصديقة، لا يوجد بيننا طلاق أو انفصال اللهم إلا ما تحتمه الشيخوخة أو الموت، من لديه امرأة عجوز، بإمكانه ـ لو أراد ـ تغييرها بأخرى تناسب طموحات سنه، بهذه اللوائح والأعراف، وبغيرها، نحافظ على كياننا ونعيش سعداء.. نحن سادة الفيافى والقفار والأراضى المزروعة، الغابات والأحراج، الجبال، الينابيع والأنهار: الجبال تقدم لنا حطبها مجانًا، والأشجار فاكهتها، ومزارع الكروم عنبها، والبساتين خضرواتها، والينابيع ماءها ، والأنهار أسماكها، والقمم العالية ظلالها، والعواصف هواءها المنعش، ومن الأحراش والغابات نتزود باللحوم، ومن الكهوف نتخذ البيوت. بالنسبة لنا: اكفهرار السماء وعبوسها نسائم عليلة، الثلوج راحة من العمل، المطر استحمام، الرعود موسيقى جياشة، العواصف والبروق فئوس قواطع، الأرض الصلبة ـ بالنسبة لنا ـ حشيات وثيرة من ريش النعام، وجلودنا المدبوغة بمثابة الدروع الواقية . خفة حركتنا لا تعوقها الجداجد(٢٧) ولا توقفها الوهاد ولا تصدها الحوائط، عزائمنا لا تثنيها القيود، لا تفت فى عضدها «لاس جاروتشاس»(٢٨)، لا يغرقها الحنق ولا تروضها المهور الخشبية(٢٩). تنتقل فى سهولة ويسر من قول «لا» إلى «نعم» أو العكس، تبعًا للظروف ولما تمليه المصلحة، هذا لأن قيمتنا الحقيقية نستمدها من الاستشهاد لامن الجلوس على كرسى الاعتراف.. من أجلنا تربى المطايا وحيوانات الجر فى المزارع والحقول، وفى المدينة

تخاط من أجلنا الجيوب فى الملابس، لا يوجد من بين العقبان أو الطيور الجارحة الأخرى من يتفوق علينا فى الانقضاض على الفريسة عند سنوح الفرصة، وعلاوة على هذا وذاك نتمتع بالمؤهلات والمهارات العديدة التى تكفل لنا الخواتيم السعيدة: فنحن فى السجن نغنى، على مهر التعذيب نصمت ولا نقول آه، بالنهار نعمل وبالليل نسرق، أو بمعنى أصح: نحرص على ألا يعيش أحد قرير العين مطمئنا على ثروته، لا يتعبنا الخوف من فقدان الشرف ولا يؤرقنا الطمع فى الارتقاء به، لا نأوى قطاع الطرق ولا نبكر إلى المحاكم لتقديم العرضحالات، لا نخالط علية القوم ولا نطلب معروفًا من أحد. نفضل أكواخنا الصفيح ومضاربنا المتنقلة على العيش فى أفخم القصور. لا نقايض ما حبتنا به الطبيعة من جروف عالية وقمم صخرية مثلجة ومروج ممتدة وغابات كثيفة بالحجرات الضيقة حتى لو كانت فى «فلاندس» ذاتها، فى الفلك نحن علماء بالفطرة، ننام غالبا فى الخلاء تحت سماء مكشوفة، نرقب النجوم على مدار الساعة ونعلم ما يخص منها الليل وما يتبع النهار. نشاهد كيف يزوى السحر النجوم ويمحوها من السماء، وكيف تمتد بعده يد الصبح لتبهج الهواء وتبرد الماء وترطب أديم الأرض، ثم تأتى الشمس لتذهب القمم وتمشط الجبال (كما يقول أحد الشعراء)، لا نخشى البرودة عندما تجرحنا بأشعتها المائلة، ولا نرهب الاحتراق بقرصها عندما تتوسط كبد السماء: فإرادتنا واحدة فى مواجهة الشمس أو الجليد، الخصوبة أو الجدب ؛ نحن - باختصار - أناس نعيش من كدنا

وعرقنا، دون الدخول فى متاهة المثل القائل: كنائس أو بحار أو أمور سلطانية (سياسية).. لدينا كل ما نريده لأننا نرضى مسرورين بماتحت أيدينا ، أخبرتك بكل هذا، أيها الفتى الكريم، حتى تكون على علم بما أنت مقبل عليه من حياة وبما يتعين عليك التصرف بموجبه ومن خلاله، وأنا لم أقدم لك إلا طرفًا منه وبإيجاز شديد، إذ هناك أمور أخرى كثيرة ستكتشفها أنت وحدك بمرور الأيام، وهى لا تقل خطرًا وأهمية عما سمعته أذناك.

سكت الغجرى العجوز عند هذا الحد، فما كان من المستجد إلا الإعراب عن سروره بتلك اللوائح والأعراف الجديرة بالثناء، وعن عزمه على ترسُّم خطاها واتباع منهاجها القائم على الحكمة والقواعد الرشيدة، وعن أسفه العميق لتأخر معرفته لهذا النمط السعيد من العيش، كما أعلن تنازله منذ تلك اللحظة عن صفة الفروسية وعن الخيلاء بأصوله العريقة، وأنه يضعهما راضيًا مختارًا تحت نير هذه الحياة أو - بمعنى أصح - تحت القوانين والنظم التى توجه دفّتها، وذلك فى مقابل إنعامهم عليه بپريثيوثا الرائعة التى يتخلى من أجلها عن العروض السامقة والإمبراطوريات العريضة.

ردت پريثيوثا على ما تقدم بقولها:

- إذا كان هؤلاء السادة المشرعون قد وجدوا فى لوائحهم ما يخول لهم تقديمى إليك طالما صادف هذا هوى فى نفسك، فإن قانون إرادتى - وهو أقوى من سائر القوانين - يأبى علىّ الانصياع لما ذهبوا إليه إلا بالشروط التى اتفقنا عليها سويا قبل مجيئك إلى هذا

المكان، ومن ثم يتعين عليك البقاء فى مضاربنا سنتين كاملتين قبل ابتنائك بى لكى لا تندم بعد ذلك على نزقك ولا ألعن تسرعى الذى غرر بى، الشروط تحطم إسار القوانين، وأنت تعرف جيدا ما اتفقنا عليه : لو قبلتها ربما أكون لك وتكون لى ، أما إذا كانت الشكوك مازالت تساورك فها هى بغلتك لم تمت بعد ، ولم يمس طاقمها ، ونقودك ستعود إليك كاملة غير منقوصة ، أما بالنسبة لغيابك فإنه لم يطل ولم يستغرق حتى الآن إلا شطرا من النهار، وما تبقى منه يمكنك استغلاله فى التفكير بروية فيما يناسبك.. بإمكان هؤلاء السادة تسليمك جسدى، أما روحى ، فكلا وألف كلا، لأنها ولدت حرة وستظل كذلك طيلة الوقت الذى أريده، لو بقيت سأحترمك كثيرا وأقدرك، ولن انتقص من قدرك هذا لو قررت العودة، أنا على يقين من أن رغبات المحبين تجرى دائما ملتاثة دون عنان حتى يلجمها ويكبح جماحها صوت العقل أو خيبة الأمل، وأنا لا أريد أن يكون حالى معك مثل الصياد مع الأرنب البرى: يظل يطارده بحمية واندفاع حتى يوقعه فى شراكه، وبعد أن يمسك به يتركه ليجرى وراء آخر يفر منه، غالبية العيون لا تميز عند النظرة الأولى بين صفرة النحاس والذهب، لكنها لو أمعنت قليلا فيهما لأدركت الفارق بين الأصلى منها والمزيف، وهذا الجمال الرائع الذى تنعتنى به وتدعى أنه عندك أعلى من الشمس منزلة وأغلى من الذهب قيمة، ما الذى يدرينى أنك لن تراه على القرب وهما، وأنه بعد اللمس مصطنع وغير حقيقى؟ أعطيك سنتين لتراجع فيهما نفسك وتختار الأفضل لك، لأن

رباط الزواج المقدس لا فكاك منه إلا بالموت، ولذا يجب أن يكون مسبوقًا بوقت كاف يسمح بالنظر ثم إعادة النظر لاكتشاف ما به من عيوب ومحاسن، أنا لست ممن ينصاع للمبدأ الهمجى المتجبر الذى أقره أهلى هؤلاء بشأن الانفصال عن النساء أو معاقبتهن بالطريقة التى تحلو لهم، وبما أننى لا أفكر فى الإتيان بشئ يستوجب العقاب، لا أريد اتخاذ شريك يتركنى وقتما يشاء.

- لديك كل الحق فيما تقولينه يا بريثيوثا - قال أندريس معقبًا - وإذا أردت أن أهدئ من روعك وأبدد مخاوفك بالحلف على التزام كل الضوابط التى ترينها ولا أخرج عنها قيد أنملة فاختارى نوع القسم الذى تريدين أو أى ضمان آخر وستجديننى رهن إشارتك.

- نادرا ما يفى الأسير بالإيمان المغلظة أو بالعهود التى يقطعها على نفسه لكى يردوا عليه حريته - قالت بريثيوثا - وما أظن أن الأمر يختلف بالنسبة للعاشق : إنه، من أجل إشباع رغبته، على استعداد للوعد بأجنحة «ميركوريو»[٣٠] وأشعة «جوبيتر» [٣١] - كما وعدنى ذات مرة أحد الشعراء - وعلى الحلف بنبع «إستخيا» [٣٢]. لا أريد منك إيمانا ولا وعوداً ، يا سيد أندريس، بل ادخار كل هذا لفترة التجربة والاختبار التى سأتولى فيها مهمة الدفاع عن نفسى ضد أية بادرة إهانة من جانبك.

- لك ما تريدين - أجاب أندريس - لكن لى طلبًا واحدًا عند هؤلاء السادة أصدقائى: إعفائى من ممارسة النشل لمدة شهر على الأقل، لأن ذلك يتطلب - حسبما أعتقد - دروسًا كثيرة.

ـ لا عليك ، يا بنى ـ قال الغجرى العجوز ـ فنحن سنتكفل بتدريبك التدريب الكافى حتى تصبح مثل الصقر فى المهنة، وعندما تتقنها ستشعر بلذة عارمة وستلعق أصابعك بعد كل عملية نشل تقوم بها ، لا توجد متعة تعدل الخروج صباحا صفر اليدين والعودة ليلاً محملاً بالعديد من الأشياء.

ـ قد يعود البعض ولا يحمل على ظهره سوى آثار السياط، كما شاهدت ـ قال أندريس.

ـ نحن لا نلهو ولا نلعب ـ رد العجوز ـ ، وكل نشاط فى هذه الحياة محفوف بجملة من المخاطر، وما يخص النشل منها يتمثل فى التجديف على السفن والجلد، وأحيانا الشنق، لكن هذا لا يعنى التوقف عن العمل، إذ لا يعقل أن تكف السفن عن الإبحار لأن إحداها تعرضت للغرق أو داهمتها عاصفة هوجاء، وهل يقلع الناس عن الانخراط فى سلك الجندية لأن الحروب تأكل الرجال والخيول؟ قدرنا يزداد علواً كلما كثرت آثار سياط العدالة على ظهورنا، فهى عندنا أفضل من النياشين وشارات الفروسية على الصدور... خلاصة القول إن كراهيتنا الشديدة للجلد على الظهور أو لضرب صفحة المياه بالمجاديف لاتدفعنا، ونحن فى ريعان الشباب، إلى النكوص على أعقابنا يائسين عند ارتكاب الجرائم الأولى. استرح الآن فى العش تحت أجنحتنا يا بنى، وثق تماما أننا لن نطلقك للطيران إلا فى الوقت المناسب وإلى حيث لا تعود إلا والفريسة بين مخالبك ، وكما أخبرتك آنفا: لن تقاوم ـ من فرط المتعة واللذة ـ لعق

أصابعك بعد كل سرقة.

- وبمثابة التعويض من جهتي - قال أندريس - عما كان بإمكاني سرقته خلال فترة التدريب ، أود توزيع مائتي إسكودو على كافة الموجودين بالمضارب.

فور انتهائه من هذا التصريح اقترب منه شباب الغجر وحملوه على الأعناق وأخذوا يهتفون: يعيش، يعيش أندريس العظيم! تحيا بريثيوثا، حبيبته وجوهرته المصونة!».

لم تقف الغجريات مكتوفات الأيدى بل فعلن الشئ نفسه مع بريثيوثا دون أن يخلو المشهد من الغيرة التى كانت تتلبس «كريستينا» وأخريات غيرها، فالغيرة تعشش أيضا فى مخيمات البرابرة وأكواخ الرعاة مثلما تسكن قصور الأمراء، ورؤية الجار ينعم بما يبدو لى أنه لا يستحقه أكثر منى تتعب وتضنى.

بعد انتهاء الحفل الرائع بالوافد الجديد أقبلوا على تناول غذائهم بشهية ونهم، ولما فرغوا منه وزعوا مائتى الإسكودو بينهم بالعدل والقسطاس لتنهال المدائح من جديد على أندريس وبريثيوثا.

ولما حنَّ الليل ذبحوا البغلة ودفنوها فى مكان آمن، كما دفنوا معها - مثلما يفعل الهنود مع موتاهم - طاقمها المكون من سرج ومهمازين وخطام ورسن، أعجب أندريس بما سمعه ورآه من إشراقيات الغجر، وعزم على اتباع سبيلهم مع التخلى تماما عن عاداته القديمة أو التخفف - على الأقل - منها قدر استطاعته ، وإن كان قد عقد النية فى الوقت نفسه على التملص - بمساعدة حافظة

نقوده ـ من ارتكاب الأفعال الظالمة التى يأمرونه بها.رجاهم أندريس فى اليوم التالى تغيير محل إقامتهم والابتعاد عن مدريد حتى لا يتعرف عليه أحد لو ظل بالقرب منها، أخبروه أنهم كانوا قد قرروا قبل حضوره الذهاب إلى جبال طليطلة لممارسة نشاطهم فى المناطق المحيطة بها.

لملموا حاجياتهم وحملوها على الدواب والعربات ثم قدموا لأندريس جحشا ليركبه، لكنه أبى وفضل السير على قدميه ليتعهد الجحش الذى تمتطيه بريثيوثا ، وهكذا سارت المحبوبة مزهوة بتابعها الأنيق الرشيق، وهو مغتبط برؤية من نصَّبها قلبه مليكة لمشيئته تمضى إلى جواره.

(آه، أيتها القوة القاهرة لما يسمونه بـ «معبود المرارة العذب» (والتسمية من بنات أفكارنا) بأى منطق تخضعيننا ، وتعاملينا بغير احترام ؟ فهذا أندريس ـ الفتى الرزين والفارس المغوار الذى قضى شطراً كبيراً من حياته بالعاصمة يتقلب بين أحضان النعيم ـ قد تحول من النقيض إلى النقيض بين عشية وضحاها: خدع خدمه وأصدقاءه، أطاح بآمال والديه فيه، ترك الطريق إلى «فلاندس» حيث كان باستطاعته التعبير عن نفسه وتسجيل المزيد من صفحات المجد والفخار فى سجل آبائه وأجداده ، وكل هذا فى مقابل الركوع تحت قدمى فتاة والعمل سائسا لها. صحيح أنها رائعة الجمال ، لكنها غجرية ، إنها حقا لإحدى معجزات الجمال تلك المتمثلة فى القدرة على إخضاع الإرادة العصية الشاردة وإحضارها قسرا لترتمى

تحت قدميه).

بعد أربعة أيام من السير المتواصل ألقوا بعصا الترحال عند قرية تبعد فرسخين عن طليطلة، وقبل أن ينصبوا عششهم وخيامهم سلموا عمدتها بعض المشغولات الفضية كضمان على عدم مزاولتهم لأنشطتهم بالقرية أو المنطقة التابعة لها.. انتشروا بعد ذلك فى جماعات لممارسة نشاطهم فى كافة الأنحاء التى تبعد عن مضاربهم بمسافة لا تقل عن أربعة فراسخ أو خمسة... انضم أندريس إلى إحدى المجموعات وذهب معها ليتلقى درسه العملى الأول فى النشل، ورغم أنهم لقنوه العديد من الدروس إلا أنه لم يستوعب واحداً منها، وفى مقابل هذا كانت كل عملية نشل ينفذها أساتذته تحز فى نفسه وتوجعه فى الصميم، وغالبًا ما كان يرق لدموع المخدوعين ويرد إليهم - من ماله الخاص - ما سلبه زملاؤه منهم، يأس منه الغجر وأفهموه أن سلوكه هذا يناقض قوانينهم ولوائحهم التى تتصدى بكل حزم لأية بادرة إحساس بالشفقة، لأنها لو تسللت إلى قلوبهم ستطمس هويتهم ولن تقوم لهم بعدها قائمة.

عندما أدرك أندريس قنوطهم أخبرهم برغبته فى ممارسة النشل بمفرده دون وصاية من أحد، فهو لا تنقصه الخفة ليهرب أو الحافز ليسرق، وبهذا الشكل يتحمل وحده نتيجة عمله: خيراً أو شراً.

عبثًا حاول الغجر إقناعه بالعدول عن رأيه: أفهموه أنهم يتعرضون فى عملهم هذا لمواقف تحتاج - سواء بالنسبة لإنجاز المهمة أو للدفاع عن النفس - لمعونة الغير، وأن شخصًا بمفرده لا

يستطيع القيام بمهام ذات شأن، لكنه أصر ـ رغم الحجج الكثيرة التى ساقوها ـ على الانفصال عن المجموعة لتبيته النية على شراء أية سلعة وادعاء سرقتها، وبهذا الشكل يتخفف قدر استطاعته من عبء تأنيب الضمير.

بعد تنفيذ أندريس لحيلته تلقت منه الأخوية فى أقل من شهر ما يفوق جملة ما أحضره أربعة من أمهر لصوصها، كانت بريثيوثا شديدة الزهو باستواء عود خطيبها الغض على ساقه وبتحوله إلى لص بارع، ومع هذا كان يقلقها ويقض مضجعها الخوف من إيقاعهم به ذات يوم وتجريسه ، لم تكن ترضى له بهذا المشهد المخزى ولو فى مقابل كنوز «فينيسيا» جميعها. (لابد أن هذا الشعور الطيب من جانبها كان مبعثه تفانيه في خدمتها والهدايا الكثيرة التى تتلقاها منه).

أمضوا فى نواحى طليطلة ما يزيد على الشهر بقليل، ولما حلت البرودة بانقضاء سبتمبر شدوا الرحال ويمموا شر إقليم «إكستريمادورا» المشهور بدفئه وغناه. كان أندريس يتبادل أحاديث الغرام العفيفة مع بريثيوثا، وشيئًا فشيئًا أخذت الفتاة تتعلق به بأدبه الجم ومعاملته اللطيفة، أما كأس الهوى الذى كان مترعًا عنده وليس بحاجة إلى المزيد فقد فاضت حوافه بفعل طهارة حبيبته وفطنتها ومتعة النظر إليها عن قرب.. كان يلفت إليه الأنظار فى أى مكان يحلون به، فهو يعدو ويقفز كالظباء يلعب الصولجان والكرة بخفة ومهارة، يرمى الزانة بقوة وإتقان لا نظير لهما..

خلاصة القول أن شهرته حلّقت فى مدة وجيزة - بالتوازى مع شهرة خطيبته - فى جميع أجواء «إكستريمادورا» وأن الناس فى كل مكان كانوا يتحدثون عن رشاقة ومهارة الغجرى أندريس كابابيروا وعن ظرفه ومواهبه، وعن جمال وسحر الغجرية الصغيرة، ومن هنا حرص سكان الإقليم - سواء فى المدن أو القرى أوالنجوع - على توجيه الدعوة إليهما لإضفاء البهجة والحبور على أعيادهم الدينية أو احتفالاتهم الخاصة، وهكذا بدأ الغنى والازدهار يدبان فى أوصال مخيمات الغجر وترفرف فوقها أجنحة السعادة، بينما اكتفى العاشقان بتبادل النظرات.

عندما كانت خيامهم منصوبة - فى إحدى المرات - بين أشجار البلوط في مكان بعيد بعض الشئ عن الطريق العمومى سمعوا، ذات ليلة، فى منتصفها تقريبا، نباح الكلاب يتعالى بإصرار وحمية أكثر من المعتاد، خرج بعض الأفراد - بينهم أندريس - لاستطلاع الخبر، فوجدوا شابا يرتدى ملابس بيضاء يحاول إبعاد الكلاب عنه والتخلص من اثنين منهم تمكنا من الإمساك بإحدى ساقيه ، هرعوا إليه وبعد تخليصه سأله أحدهم:

- ما الذى رمى بك إلى هذا المكان البعيد عن الطريق وفى تلك الساعة؟ أجئت لتسرقنا؟ لو كنت قادما لهذا الغرض فنعم الاختيار.

- ما قدمت للسرقة - أجاب المعضوض - ولا أدرى ما إذا كنت أسير على الطريق أو خارجه، وإن تبين لى الآن أننى ابتعدت عنه بالفعل ، لكن، بربكم أيها السادة، ألا يوجد خان قريب من هنا آوى

إليه هذه الليلة لأضمد الجراح التى أحدثتها كلابكم؟

- لا يوجد بالجوار خان واحد ندلك عليه - أجاب أندريس - لكن مادام الأمر يتعلق بالليلة ومداواة جراحك فلن نعجز عن توفير فراش مريح لك داخل مخيمنا، تعال معنا، فنحن معاشر الغجر نعرف أيضا الرحمة.

- يرحمكم الله أيها السادة - رد الشاب - احملونى إلى حيث تريدون لأن آلام ساقى أنهكتنى.

اقترب منه أندريس وغجرى آخر - فمن بين الشياطين يوجد من هو أسوأ من الآخر، ومن بين حشد الرجال الأشرار يمكن العثور على واحد طيب - وتعاونا سويًا على حمله.

كانت الليلة صافية مقمرة مما جعلهم يرونه بوضوح: كان شابا جميل الخلقة، رشيق القد ، يرتدى ملابس بيضاء من الكتان. فور وصولهم به إلى كوخ أندريس أضاءوا المصباح وأوقدوا النار وأرسلوا فى طلب جدة بريثيوثا التى حضرت على جناح السرعة لتطبيبه، انتزعت الغجرية العجوز بعض الشعور من الكلبين العاقرين وقلتهم فى الزيت، غسلت بالنبيذ مكان العضتين على الساق اليسرى، ووضعت فوقهما الشعور المقلية فى الزيت ثم أضافت قليلاً من نبات القرمان المطحون ، قامت بعد ذلك بإحكام ربط الجرحين بقطعة نظيفة ثم أشارت عليهما بعلامة الصليب ، ولما فرغت من عملها قالت:

- نم أيها الصديق، وستصبح بعون الله وكأن شيئًا لم يكن.

كانت بريثيوثا تسترق النظر إلى الشاب أثناء قيام جدتها

بتطبيبه، ولم يمسك هو الآخر عن إنعام النظر إليها، استرعى هذا انتباه أندريس، لكنه أرجعه إلى جمال بريثيوثا الخلاب الذى يستولى على العيون ويجبرها على التوجه إلى صاحبته . المهم أنهم فى النهاية تركوا الشاب بعد تضميد جراحه ليستريح فوق سرير من القش الجاف وآثروا عدم إزعاجه فى تلك الظروف بالسؤال عن هويته أو وجهته أو أى شئ آخر.

أخذت بريثيوثا أندريس من يده وانتحت به جانبًا فور ابتعادهما عن الكوخ لتقول له:

- ألا تذكر تلك الورقة التى سقطت منى عندما كنا نرقص أنا وزميلاتى فى بيتكم، واغتظت بسببها؟

- نعم أذكرها،لقد كانت تحتوى على سونيت لا بأس به،يمتدح جمالك.

- لا تنزعج إذن لو علمت أن الذى ألف هذا السونيت هو الشاب المعضوض الذى تركناه راقدًا فى الكوخ، لاشك أنه هو، فقد كلمته فى مدريد مرتين أو ثلاثا سلمنى خلالها قصيدة أخرى رائعة. إنه يعمل وصيفًا فى مدريد ، لا لرجل عادى بل لأحد الأمراء على ما أظن . إنه - حقًا - شاب مهذب، راجح العقل وفى منتهى العفة، ولا أدرى ما الذى ساقه إلى هذا المكان.

- وما ظنك أنت، يا بريثيوثا؟ لم يأت بهذا الشاب فى ثياب الطحّان إلى هنا إلا الذى أحضرنى قبله وجعلنى غجريًا، لقد بات واضحًا للعيان أن من دواعى سعادتك رؤية نفسك محاطة بالعديد

من المعجبين الخانعين، لو كنت فعلاً هكذا، اقتليني أولاً ثم ألحقي بي هذا الآخر، هذا إذا لم تكوني تضمرين التضحية بنا سوياً على عتبات وهمك، حتى لا أقول جمالك.

ـ عفوك يا إلهي! ـ قالت بريثيوثا ـ أيمكن أن يصل بك الطيش إلى هذا الحد وأن تجعل سمعتي وآمالك في مهب الريح معلقتين بخيط رفيع! لقد تمكن سيف الغيرة الصلد من اختراق روحك في سهولة ويسر، قل لي، يا أندريس، هل قلبت النظر ووجدت شائبة اصطناع أو خداع فيما أخبرتك به؟ ألم يكن بمقدوري الصمت وإخفاء حقيقة هذا الشاب؟ أم تظنني ـ على سبيل المصادفة ـ حمقاء لدرجة إعطائك الفرصة كي تضع طيبتي وحسن نيتي موضع الشبهات؟ اصمت يا أندريس ، بالله عليك، وحاول من الآن وحتى انبلاج الصباح اقتلاع هذه الوساوس والأوهام من صدرك ، ربما يكشف لك عقلك عن بطلان هواجسك ، ولكي أرضيك وأقطع دابر الشك عندك ـ مادامت المسألة قد وصلت إلى الحد الذي يستدعي استرضاءك ـ أطلب منك طرد هذا الشاب دون انتظار للبحث عن الدوافع التي ألقت به إلى هذا المكان، اطرده ولن يمانعك أحد، فجميع من بالمخيم لا يعصون لك أمراً. ولو فرضنا أن هذا لم يحدث أتعهد لك بعدم مغادرة مسكني من هذه اللحظة ولا أمكنه من رؤية ذيل ثوبي ، لا هو ولا غيره ممن لا تروقك رؤيتهم لي، أتعرف يا أندريس أنه لا يحزنني البتة رؤيتك غيوراً ، لكن يحزّ في نفسي ويوجعني كثيراً أن أخالك نزقاً أو غير بصير.

- إذا لم يعترينى الجنون - رد أندريس - فأى عارض آخر يعد تافهًا أو لا وجود له نظرًا لما يمكن أن تحدثه الغيرة المَريرة القاسية من أضرار جسيمة. ورغم كل هذا فلا مانع لدى من مسايرتك ومحاولة الوقوف - إن تيسر هذا - على حقيقة ما يريده هذا الوصيف الشاعر، وإلى أين هو ذاهب وعن ماذا يبحث، فبالإمكان التقاط خيط قد يظهر منه على حين غفلة يقود إلى استخراج البكرة المخبوءة، وإن كنت أخشى أن تطوقنى لفائفها.

- الغيرة على ما أظن - قالت بريثيوثا - لا تترك العقل حرًا طليقًا لكى يزن الأمور بميزانها الصحيح، فالغيورون ينظرون دائمًا من خلال عدسات مكبرة بعيدة المدى تجعل الأشياء الصغيرة كبيرة والقزمة عملاقة، وتقلب الشكوك حقائق، أستحلفك بحياتى وحياتك، يا أندريس، أن تتصرف فى هذا الأمر وفى كل ما يعن لنا من أمور بحنكة ورويّة، لو فعلت هذا فأنا على يقين من أنك ستسلم وتقر - دون تحفظات - بعفافى وصونى ومصداقيتى.

ودعته بريثيوثا بعد ذلك وعادت إلى كوخها بينما ظل هو منتظرًا (عكر المزاج، تتناوشه آلاف التخيلات السقيمة) انبلاج الصباح ليتلقى اعترافات الجريح، لم يستطع تخيل سبب آخر لمجئ ذلك الوصيف سوى افتتانه بجمالها، فاللص يتصور الناس جميعًا على شاكلته، ومن جهة أخرى، بدا له أن اجتهاد بريثيوثا فى استرضائه بهذا الشكل يجبره على العيش هانئًا قرير العين وعلى أن يسلم، مطمئنا، دفة حظه إلى يدها الأمينة.

أخيراً طلع النهار، ومع طلعته اتجه أندريس إلى كوخ المعضوض وأخذ يمطره بوابل من الأسئلة: عن اسمه ووجهته ومغزى سيره فى وقت متأخر من الليل بعيداً عن الطريق العمومى، وإن كان قد سأله أولاً عن حاله وآلام جراحه ، أجابه الشاب عن السؤال الأخير قائلاً: إنه بخير ولم يعد يشعر بأى ألم مما يجعله قادراً على مواصلة طريقه، أما بالنسبة لاسمه ووجهته فلم يجب بأكثر من أنه يدعى «ألونسو أورتادو»، وأنه ذاهب فى مهمة إلى «نويسترا سنيورا دى لابينيا دى فرنسا»[٣٣]، وأن حرصه على الوصول بسرعة إليها هو الذى اضطره إلى السير ليلاً، ولهذا السبب ضل الطريق واقتادته قدماه إلى هذا المخيم حيث هاجمته الكلاب وأحدثت به ما شاهدوه بأعينهم.

بدا واضحا لأندريس شدة زيف هذه التصريحات الملفقة، ومن ثم عادت الهواجس تمزق روحه من جديد قال له منفعلاً:

يا أخى لو كنت أنا القاضى وجئت إلى ساحتى متهماً بجرم ارتكبته ووجه إليك ممثلو الإدعاء الأسئلة التى طرحتها عليك الآن، فإن إجاباتك الحالية ستضطرنى لأن آمرهم بتكثيف الضغط عليك بالقيود والحبال، لا يهمنى معرفة من تكون ولا حتى اسمك أو وجهتك ، إنما أريد أن تسمع منى هذه النصيحة إذا كنت بحاجة إلى الكذب فافعل بشكل لا يسترعى الانتباه . تدعى أنك ذاهب إلى «بينيا دى فرنسا» بينما هى وراءك بما لا يقل عن ثلاثين فرسخا، وأنك تسير ليلاً لضيق الوقت بينما تترك الطريق وتتخبط فى الغابات بين أشجار

البلوط حيث لا توجد دروب ولا حتى مسالك، لكن ألا يستحق تنبيهك إلى خطئك الاعتراف ولو بحقيقة واحدة؟ ألست ـ على سبيل المصادفة ـ ذلك الوصيف الذى رأيته عدة مرات فى مدريد ، ذلك الشاعر المشهور الذى ألف قصيدتين فى غجرية حسناء كانت تجوب شوارع العاصمة منذ بضعة أشهر؟ أخبرنى بالحقيقة، وأعدك بحفظ السر وعدم البوح به. لو لم تعترف لى بأنك الشخص الذى أحدثك عنه فلن تبرح هذا المكان ، لأن الوجه الذى أراه أمامى هو نفسه الذى شاهدته من قبل فى مدريد، لقد حملنى ذيوع صيتك وغرابة أمرك على التدقيق فيك وقتها، وهكذا انطبعت صورتك فى مخيلتى ، ومن ثم لم أجد صعوبة فى التعرف عليك فور رؤيتك رغم تخفيك فى هذه الثياب ، لا ترتبك، تشجع ، ولا تظن أنك بين براثن مجموعة من اللصوص، بل فى ملجأ آمن يعرف الذود عنك وحمايتك من العالم بأسره، اسمع، نفسى تحدثنى بشئ ، ولو صدق حدسى يكون حسن طالعك هو الذى جعلك تعثر فىّ: أظن أنك وقعت فى غرام پريثيوثا ـ تلك الغجرية الجميلة التى كتبت فيها شعراً ـ لذلك أتيت للبحث عنها، ومثل هذا الأمر لا يعيبك بل يزيد من قدرك ، فأنا رغم غجريتى ـ قد علمتنى التجارب أن يد الحب تفعل الأعاجيب بمن يقعون تحت إمرتها أو يتقلبون فى ساحتها، لو كان ظنى فى محله ـ وأعتقد أنه كذلك ـ فالغجرية المقصودة موجودة هنا.

ـ أعرف أنها هنا لأننى رأيتها ليلة أمس ـ قال المعضوض، وبقوله هذا امتقع لون أندريس وتأكدت شكوكه ـ ولكننى لم أجرؤ على

الكشف لها عن شخصيتى حتى لا تتفاقم الأمور.

- أنت إذن الشاعر الذى أعنيه.

- نعم أنا، فلم يعد بالإمكان الإنكار، ربما ينتظرنى الخير فى المكان الذى حسبت أننى ضعت فيه، هذا إذا سلمنا جدلاً بأن فى الغابات يمكن أن يتوافر الأمان أو الترحاب فى الجبال.

- يتوافر بالتأكيد - قال أندريس - وعلى وجه الخصوص فى مضارب الغجر - والآن بوسعك أيها السيد - انطلاقًا من الثقة المتبادلة - الإفصاح عن مكنون صدرك وستجدنى نعم الناصح الأمين، الغجرية قريبتى، وولايتى عليها تخول لى أن أفعل بها ما أريد ، لو كنت تريدها زوجة لا يسعنا إلا مباركة اختيارك، ولو أردتها خليلة فلم نمانع مادامت حافظتك عامرة بالنقود ، فالجشع يعتبر إحدى شيمنا الأصيلة.

- المال موجود والحمد لله - رد الشاب - ففى كُمى قميصى هذا توجد أربعمائة إسكودو ملفوفة حول ساعدى.

نزل هذا الخبر على أندريس كالصاعقة، إذ تصور أن الشاب لم يحضر معه كل هذا المبلغ الضخم إلا لاستهواء حبيبته أو لشرائها، ومع هذا تمالك نفسه ليواصل معه الحديث وإن كان بلسان متلعثم مرتجف:

- إنه حقًا لمبلغ كبير، لم يبق إذن إلا الكشف عن هويتك والشروع فى العمل .. الفتاة ليست بلهاء وستسعد أيما سعادة بالاقتران بشاب مثلك.

- آه ، يا صديقى ! - قال الشاب - أود أن تعرف أن القوة القاهرة التى أجبرتنى على ارتداء هذه الثياب المستعارة لا صلة لها بالحب الذى تتفنن فى الحديث عنه، ولا حتى بالرغبة فى بريثيوثا، فالعاصمة مدريد تعج بالفاتنات اللاتى يأسرن القلوب ويخطفن الألباب، وجمال قريبتك وإن كان يبزهن جميعا إلا أنه فى نهاية المطاف على غجرية . ما ألقى بى إلى هذا المكان فى هذه الثياب، سائرا على قدمى ومعضوضًا من الكلاب ليس سببه الحب، بل طامة كبرى ومصيبة عظيمة هبطت على أم رأسى.

استعاد أندريس بعد سماعه الكلمات السابقة قواه الخائرة، وبدا له أن الأمور تمشى فى اتجاه مغاير لما ذهب إليه تفكيره، وللهفته الشديدة للخروج من تلك البلبلة ، عاود الضغط على الشاب لكى يكشف عن أبعاد نكبته، وقد تحقق له المأمول لأن المعضوض واصل حديثه قائلا:

- فى مدريد كنت أعمل وصيفًا لأحد حاملى الألقاب الذى لم يكن يعاملنى بهذه الصفة، بل كفرد من أهل بيته، كان لسيدى هذا ابن وحيد يماثلنى فى العمر ويشبهنى فى معظم الصفات، ومن ثم فقد كانت تربطنى به علاقة أخوة وصداقة، حدث أن أحب هذا الابن فتاة من أحد البيوتات العريقة، وكان من الممكن أن يختارها عن طيب خاطر لتكون زوجته لو لم يكن قراره متوقفًا - كالحال فى الأبناء المؤدبين الذين لا يفعلون شيئًا إلا بموافقة أولياء أمورهم - على تصريح والديه الذين كانا يرغبان فى تزويجه من عروس تنتمى

لطبقتهم الاجتماعية الراقية ، المهم أن صديقى هذا وابن سيدى كان يتودد إلى فتاته سراً، بعيداً عن كافة العيون فيما عدا عينىْ هاتين اللتين شهدتا محاولاته المتكررة لإرضائها ، وذات ليلة، يبدو أن القدر المشئوم قد اختارها لحدوث المصيبة التى أخص لك وقائعها على النحو التالى: فى أثناء طوافنا بشارع تلك الفتاة لمحنا رجلين ، حسنى المظهر ، يحومان حول بيتها، أراد صديقى معرفة من هما، ولم يكد يخطو بضع خطوات - وأنا إلى جواره - حتى امتشق كل واحد منهما حساماً بيد وبالأخرى أشهر مسدسه واتجها نحونا، اضطررنا اضطرارا لفعل الشئ نفسه لتجرى معركة لم تدم طويلا ، هذا لأن روحى الخصمين فارقتا جسديهما سريعًا من جراء طعنتين: سددت الأولى بسيف صديقى المدفوع بالغيرة، بينما وقع على عاتقى تسديد الثانية دفاعاً عن النفس، وهكذا انتهى المشهد بسرعة نادرة وغير معهودة، بعد انتصارنا الذى لم نكن نريده ولا نطمع فيه، عدنا أدراجنا إلى البيت وأخذنا - دون أن يشعر بنا أحد - ما طالته أيدينا من نقود، ثم غادرناه ولجأنا إلى دير «سان خيرونيمو» للاحتماء به، فى انتظار ما سيسفر عنه التحقيق عندما تكتشف الجريمة فى الصباح، علمنا بعد ذلك أن المحققين لن يستدلوا على أى أثر للجناة، وعندئذ نصحنا الرهبان بالعودة إلى البيت حتى لا يثير غيابنا الشكوك... اقتنعنا بوجهة نظرهم ، وحين هممنا بالانصراف علمنا أن قضاة العاصمة احتجزوا الفتاة ووالديها وخدمهم للاستجواب ، وأن خادمة الفتاة أخبرتهم أن صديقى كان يحوم ليل

نهار حول بيت سيدتها، قامت قوات الشرطة - بناء على هذه القرينة بمداهمة المنزل للقبض علينا فلم تجد سوى آثار هروبنا مبعثرة فى أرجاء المكان، وبهذا الشكل أدركت العاصمة بأسرها أننا منفذا الجريمة التى راح ضحيتها رجلان من علية القوم... ظللنا مختبئين خمسة عشر يومًا، وفى نهايتها ارتأى صديقى الكونت والرهبان ضرورة مغادرتنا للدير: بصحبة أحدهم خرج زميلى متخفيًا فى ثياب كاهن قاصدين إقليم «رغون» ،كان ينوى مواصلة الهرب إلى إيطاليا ثم إلى «فلاندس» حيث يمكنه متابعة تطور الأحداث من بعيد، لم أشأ مرافقته حتى لا أربط مصيرى بمصيره، ولذا أخذت طريقًا مغايرًا : فى ثياب خادم قسيس خرجت - على قدمى - بصحبة راهب آخر ظل ملازمًا لى حتى وصلنا إلى «طلبيرة» ومنها سرت بمفردى خارج الطريق العمومى جتى وجدت نفسى داخل هذا الدغل من أشجار البلوط حيث جرى لى ما عاينتموه ، وإذا كان قد ورد على لسانى ذكر «بينيا دى فرنسا» فهذا لأننى أردت الإجابة بشئ عما سألتنى عنه، فأنا لا أعرف حقيقة موقعها بالتحديد، وغاية علمى بها أنها تقع خلف مدينة «شلمنقة» بمسافة كبيرة .

- أنها بالفعل هكذا - رد عليه أندريس - لو سرت فى الطريق العمومى ستجدها على يمينك بعد حوالى عشرين فرسخًا من هنا(٣٤) .

لا أنوى الذهاب إليها - قال الشاب - بل إلى إشبيلية لمقابلة تاجر إيطالى من جنوة تربطه صداقة حميمة بالكونت قريبى، وهو

متخصص فى تجارة الفضة التى يرسل منها شحنات ضخمة وبصفة دورية إلى مسقط رأسه. آمل أن يخبئنى فى أحد الصناديق لأتمكن من الوصول إلى ميناء قرطاجنة (فى مملكة مرسية)، ومنه إلى إيطاليا على متن سفينة من السفينتين المنتظر قدومهما قريبا إلى هذا الميناء لتحميل شحنات الفضة... هذه هى حكايتى باختصار، أيها الصديق، وهى كما ترى مترعة بالمآسى والمصائب ولا تمت بصلة إلى لواعج الحب أو تباريح الهوى، ومن هنا إلى إشبيلية أتعشم أن يقبلنى هؤلاء السادة الغجر ضمن قافلتهم إن كانوا قد أزمعوا الرحيل إليها، فأنا أظن أن السفر بصحبتهم سيبدد الخوف الذى يقض مضجعى، وسيجعلنى أشعر بالأمان.

- لست أدرى إذا كان الغجر بمخيمنا سيشدون الرحال فى القريب العاجل إلى «أندلوثيا» أم لا، لكنى أعتقد أننا سنمر بعد يومين على مخيم آخر للغجر ذاهب إلى هناك ولا أظن أنهم سيمانعون فى انضمامك إليهم مادمت ستعطيهم فى المقابل بعض ما لديك من مال.

تركه أندريس وعاد إلى الغجر ليخبرهم بحقيقة الشاب وبرغبته فى البقاء معهم للسفر إلى أشبيلية نظير مبلغ كبير من المال. رحب الجميع به فى المخيم فيما عدا بريثيوثا وجدتها، لم تفصح الأولى عن سبب رفضها، أما الجدة فقد أرجعت استحالة اقترابها من أشبيلية أو نواحيها إلى مزحة من النوع الثقيل جرت منذ عدة سنوات مع صانع قبعات وأغطية للرءوس مشهور بتلك المدينة ويدعى

«تريجيوس»(٣٥) . قالت إنها جعلته يُدخل نفسه ـ عاريا كما ولدته أمه وعلى رأسه إكليل من أفرع شجر الصفصاف ـ فى خابية كبيرة مملوءة عن آخرها بالماء فى انتظار انتصاف الليل لكى يخرج من محبسه ويحفر بهمة لاستخراج كنز عظيم كانت العجوز قد أوهمته بأنه مدفون فى أحد أركان بيته ولا توجد طريقة لاستخراجه سوى الموصى بها.

عندما سمع صانع القبعات أجراس الكنيسة تعلن انتصاف الليل، دفعته لهفة الخروج فى الوقت المناسب إلى الارتطام بأحد جوانب الخابية فسقطت وهو بداخلها على الأرض، تناثرت الخابية أشلاء مفرغة محتواها على الأرض، و«تريجيوس» وسط الماء يسبح مشوشًا ـ من هول السقطة ومن آلام الرضوض التى أحدثتها الشظايا بجميع أجزاء جسده ـ ويصرخ مستغيثا لينقذوه من الغرق.

حضرت زوجته على الصراخ ولحق بها الجيران وبأيديهم القناديل فوجدوه منهمكًا فى تأدية حركات العائم: يشهق ويزفر بعمق، يجرجر بطنه على الأرض وهو يحرك بأقصى سرعة ساعديه ورجليه وينادى بأعلى صوته: النجدة ، النجدة، إنى أغرق».. لقد بلغ به الذعر مبلغا جعله يتصور أنه يغرق بالفعل، أمسكوا به وانتشلوه من بين براثن ذلك الخطر، وعندئذ ثاب إلى رشده وقص عليهم تعليمات الغجرية. ومع أنهم أخبروه أنها مجرد مزحة سخيفة إلا أنه نهض من فوره وشرع يحفر بهمة فى المكان الموصى به، ولو لم يتداركه أحد الجيران ويمنعه بالقوة من مواصلة الحفر فى

الأساسات لانهار البيت بكامله فوق رءوسهم جميعا، انتشرت أنباء تلك الواقعة فى كافة أنحاء المدينة لدرجة أن الصبيان كانوا يشيرون إليه بأصابعهم حين يرونه ويتعجبون من حمقه ومن شدة دهائى وخبثى.

ما روته الغجرية العجوز كان عذرًا أكثر من مقبول لعدم الذهاب إلى أشبيلية ، ومن جهة أخرى فقد أسال المبلغ الكبير الذى يحمله الشاب لعاب الغجر، ومن ثم فقد أعربوا دون تردد عن الترحيب به ضيفًا على مخيمهم، وأبدوا استعدادهم لضمان سلامته وإخفائه طيلة الوقت الذى يريده، بل إنهم تطوعوا بتغيير مسار رحلتهم والانحراف جهة اليسار لاختراق إقليم «لامنتشا» والوصول به إلى مملكة مرسية.

نادوا بعد ذلك على الشاب وأخبروه بما سيفعلونه من أجله، فشكرهم على حسن صنيعهم وأعطاهم على الفور مائة إسكودو لاقتسامها فيما بينهم.

كان لهذه المنحة مفعول السحر فى نفوس الغجر فأصبحوا يعاملونه بكل لطف ولين ولا يدخرون وسعا فى العمل على راحته.. أما پريثيوثا فلم تكن مستريحة لوجود هذا الشاب الذى تبين أنه يدعى «دون سانتشو» ، لكن الغجر أطلقوا عليه «كليمنتى» وظلوا ينادونه به، أندريس أيضا لم يسر كثيرا ببقاء كليمنتى لاعتقاده أنه لم يبرأ تماما من إعجابه القديم ولم يتخلص من كافة رواسبه ، كان كليمنتى من الذكاء بحيث أدرك ما يعتمل فى صدر أندريس، ومن ثم

فقد انتهز فرصة حديث مطول معه ليصرح له وسط الكلام بأن غاية همه هو الذهاب إلى مملكة مرسية ليستقل من مينائها فى قرطاجنة سفينة من السفينتين المتجهتين إلى إيطاليا ، ومع هذا لم يسكن روع أندريس ولذا حرص على أن يكون زميله المصاحب له فى الحل والترحال حتى لا يغيب عن عينيه ويستطيع مراقبة حركاته وسكناته، شكر له كليمنتى هذا الصنيع دون أن يفطن إلى دواعيه، المهم أنهما أصبحا متلازمين منذ تلك اللحظة: كانا ينفقان بسخاء ويتصدقان عن سعة، يشتركان معا فى الرقص وفى مسابقات العدو والوثب ورمى الزانة التى أظهرا فيها براعة منقطعة النظير، ولهذه الأسباب مجتمعة هفت إليهما قلوب الغجريات واستأثرا باحترام رجالهن.

تركوا إقليم «إكستريمادورا» ودخلوا إقليم «لامنتشا» وبين توقُّف وسير على الطريق المؤدى إلى مملكة مرسية أخذوا يقتربون منها رويداً رويداً، وفى جميع القرى والأماكن التى يمرون بها كانت المسابقات تعقد (فى لعب الكرة والمبارزة بالشيش والعدو والقفز وبقية ألعاب القوى التى تتطلب مهارة وخفة) التى بات الفوز فيها حكراً على أندريس وكليمنتى(مثلما كانت من قبل حكراً على أندريس)... لم يجد كليمنتى طوال تلك الفترة التى زادت عن شهر ونصف أية فرصة (والحق يقال إنه لم يسع أيضا لاختلاقها) للكلام مع بريثيوثا أو التوجه إليها بالحديث ، وبينما كانت واقفة ذات يوم مع أندريس نادى عليه الأخير عندما شاهده يمر على مقربة منهما، لبى كليمنتى النداء، وعندما وصل إليهما قالت له بريثيوثا:

ـ عرفتك يا كليمنتى أول مرة رأيتك فيها داخل مضاربنا وتذكرت أشعارك التى كتبتها لى فى مدريد، وإذا كنت لم أقل عنك كلمة ساعتها فهذا لأننى لم أكن أعرف ما وراءك، آلمنى فى الصميم خبر نكبتك وإن كان قد أعاد الطمأنينة إلى قلبى الذى سيطر عليه الفزع لاعتقاده أن بإمكان «دون شانتشو» انتحال شخصية أخرى مادام «دون خوان» قد تحول قبله إلى أندريس، دفعنى لقول هذا علمى من أندريس أنه كشف لك عن حقيقته وعن الدافع لاتخاذه حياة الغجر، ويبدو أنه أطلعك على سره ليستطيع التشاور معك وتبادل الأفكار حول هذا الموضوع، لا تظن يا كليمنتى أن معرفتى السابقة بك ضاعت هباء، يكفى أن احترامى لك وما أثنيت به عليك كان سبباً فى بقائك بين ظهرانينا، وإنى لأضرع إلى الله بأن توفر لك الإقامة فى مضاربنا الحماية التى تنشدها وتحقق من خلالها أمانيك وما تسعى جاهداً إليه، وفى مقابل هذا الشعور الطيب من جانبى أتوسل إليك ألا تسفه أحلام أندريس وألا تعكر عليه صفو استمرار وضعه الحالى، فأنا رغم اعتقادى أن إرادته ترزح مستكنة تحت أقفال إرادتى إلا إنه يحزننى أن أرى منه بادرة ـ ولو يسيرة ـ تنم عن إحساسه بالندم.

قال كليمنتى عندئذ:

ـ لا تظنى ، أيتها الجوهرة الفريدة، أن أندريس كشف لى عن هويته لتخاذل اعتراه: هذا لأننى الذى تعرفت عليه أولا، ومن عينيه قرأت ما يرمى إليه أنا الذى بادرت بإخباره من يكون، وتكهنت بالغل

الذى يطوّق إرادته، وقد تصرف هو طبقا لما يمليه العقل والمنطق وأصدقنى الجواب، فما كان منى إلا أن قمت - وهو على هذا خير شاهد - بالثناء على قراره واختياره . أنا - آه، يا بريثيوثا! - لست من السذاجة بحيث لا أدرك إلى أى مدى يمكن أن تتسع سطوة الجمال ونفوذه ، وجمالك يعتبر - لتجاوزه أقصى الحدود الممكنة للجمال - أشد الأعذار قبولا لارتكاب أعتى الأغلاط ، هذا إن حق لنا إطلاق لفظ أغلاط على التصرفات التى تفرضها الأسباب القهرية.. أشكر لك، يا سيدتى، ما قلته فى حقى، ولا أملك الآن لرد هذا الجميل سوى أخلص الأمانى بالخاتمة البهيجة لقصة حبكما المعقدة، وأن تسعدى بأندريس كما يسعد بك فى ظل موافقة ورضا والديه، فتزاوج الجمال بنظيره يعنى إمداد العالم بأجمل الأفراخ (الأطفال) وهكذا تنعم الطبيعة بما تنشده من حسن وبهاء، هذا ما أتمناه لكما يا بريثيوثا. وهذا ما سأقوله دومًا لأندريس ، ولن يرد على لسانى شئ يعكر صفو نواياه الرائعة الراسخة.

ساور الشك أندريس فى كلام كليمنتى السابق، ولم يعد يدرى إذا كان قد تفوه به من منطلق هيامه أم من منطلق فطنته وتهذيبه، ذلك لأن آفة الغيرة الجهنمية غاية فى الدقة بحيث تلتصق بذرات أشعة الشمس، وعندما تسقط هذه الذرات على الشئ المحبوب تصيب من يقترب منه بالإجهاد والقنوط، ورغم ما تقدم ذكره، إلا أن غيرة أندريس لم يكن لها ما يبررها، لكن هذا هو حال العاشقين الذين يعتبرون أنفسهم تعساء دائما طالما أنهم لم يظفروا بما يلهثون

وراءه، خلاصة القول أن أندريس وكليمنتى أصبحا زميلين وصديقين عزيزين، وهذا بفضل نوايا كليمنتى الحسنة وخفر بريثيوثا اللذين تكفلا بوأد أية فرصة يمكن أن توقظ الغيرة فى صدر حبيبها.

كانت موهبة الشعر ترفرف بجناحيها على كليمنتى (كما تشهد بذلك القصيدتان اللتان أهداهما لبريثيوثا) وتداعب أندريس من علٍ، لكن الاثنين كانا مغرمين بالموسيقى وعازفين ماهرين على آلاتها، ذات ليلة، بينما كان أندريس جالسا على جذع شجرة فلين وكليمنتى على جذع شجرة بلوط، ساهرين يتجاذبان أطراف الحديث فى مخيمهم المنصوب بوادٍ يبعد أربعة فراسخ عن مرسية، دعاهما صمت الليل وسكونه إلى أن يمسك كل منهما بـ «جيتار» والتغنى - على التوالى - بهذه الأشعار:

أندريس

تأمل ، يا كليمنتى ، الطرحة المنجومة

التى ينافس بها النهار

هذه الليلة الباردة

فى ترصيع السماء بالأضواء المتلألئة

لو شحذت قريحتك البارعة،

لرأيت على هذا الأنموذج،

ذلك الوجه يظهر

على ديباجة الجمال الأمثل.

كليمنتى

على ديباجة الجمال الأمثل

حيث توجد پريثيوثا الشهيرة،

العفة الأثيرة

فى سخاء تَنَقْى وتطهر،

لو اتسعت لمثلها جنبات كائن حى،

لن توفيها حقها من المديح عبقرية بشرية

ما لم تطلق لنفسها العنان

لتخوض فى الأعالى، فى الغرائب والأعاجيب.

أندريس

لا يخوض فى الأعالى ، فى الغرائب والأعاجيب

إلا أسلوب لم يطرق بعد،

ممتداً إلى عنان السماء،

فى صراط لم يشهده العالم أجمع،

اسمك، آه يا پريثيوثا!،

يثير الدهشة والفزع والإبهار،

أتمنى أن تحمله الشهرة

إلى السماء السابعة.

كليمنتى

حمله إلى السماء السابعة

مناسب وعادل،

فعندما يتردد هنالك

يفيض الحبور على ما تحتها من سماوات ،

وفى الأرض أينما يُسمع صداه،

تنساب المتعة

موسيقى فى الآذان،

سكينة فى الأرواح ونعيما فى الحواس

أندريس

سكينة فى الأرواح ونعيم فى الحواس

هكذا الإحساس عندما تصدح بالغناء

جنيّة البحر، التى تسحر الألباب

وتخدر الجفون الأشد سهادا

هكذا تكون بريثيوثتى،

جمالها بُعيض ما عندها:

عطيتى اللذيذة،

إكليل للملاحة، إجلال للحماسة

تكونين ، غجرية جميلة،

نضارة الصباح،

فى الصيف القائظ النسائم العليلة

شعاع به يحول الحب الأعمى

برودة الصدور إلى غليان القدور

القوة التى صاغتها على هذا المنوال

تُميت برفق وتبعث السرور

لم يكن يبدو أنهما سينتهيان سريعا لو لم يسمعا صوت پريثيوثا يجلجل خلف ظهريهما ، توقفا وأصاخا السمع للقصيدة التى تتدفق على لسانها العذب، ولأن موضوع القصيدة كان مناسبا للموقف ويعتبر ردا على أشعارهما السابقة، فلا أدرى إذا كانت مرتجلة أم أنها حفظتها من قبل عن شاعر آخر، وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فهاهى القصيدة التى تغنت بها:

- فى قضية الحب تلك

التى نلهو بها ونتسلى،

عفافى لحسن طالعى

أعلى شأنا من جمالى.

فالنبتة الأشد ضعفا

لو نمت فى استقامة دون اعوجاج،

بفضل الله أو الطبيعة

سترقى يوما إلى عنان السماء.

معدنى النحاسى المتواضع

مادامت العفة طلاءه

لم تعد تنقصه الأمانى

ولا هو بحاجة إلى الثروات.

لا يسبب لى أدنى كدر

ألا يهوانى أحد أو يقدرنى حق قدرى

لأننى على يقين أن الذى صاغنى

هو نصيبى وحظى الأسعد
أهتدى بما هو مكنون بداخلى
لأنه إلى جادة الصواب سيرشدنى
وليس لى بعد ذلك الاعتراض
على تدبير السماء وما تخطُّه الأقدار
ليتنى أعرف وأتحقق
مما إذا كان بمقدور الجمال
حَملى إلى القمة العالية
حيث تشرئب النفس إلى المنزلة السامية.
إذا كانت الأرواح فى الخلق متساوية،
فلن تعجز الكائنة فى صدر الفلاح
عن الرقى فى الفضل والقيمة
إلى مصاف أرواح الأباطرة.
أحس بأن روحى توَّاقة
للسمو إلى الدرجة العلية
والحب والجلال
على مقعد واحد لا يستويان.

عندما انتهت بريثيوثا نهضا لاستقبالها ، وأمضى ثلاثتهم بعض الوقت فى تبادل الأحاديث المتزنة المتعقلة، ومن مداخلات بريثيوثا التى تنم عن الفطنة والعفة وحدّة الذكاء وضح لكليمنتى سر تمسك صديقه بها والتمس له العذر فيما عقد عليه العزم، وقد كان حتى تلك

اللحظة متحيرا من مسلكه هذا ويظنه استجابة لطيش الشباب لا لنداء العقل والحكمة.

لملموا حاجياتهم فى صباح اليوم التالى ويمموا شطر قرية من أعمال مرسية ولا يفصلها عنها سوى ثلاثة أميال ، وبها حلت بأندريس كارثة كادت تودى بحياته... حدث بعد قيامهم ـ كما جرت العادة ـ بتقديم عدد من الأكواب والتحف الفضية لإقامة مضاربهم بالقرية أن توجهت مجموعة تضم پريثيوثا وجدتها وكريستينا آخريين علاوة على أندريس وكليمنتى إلى خان أرملة غنية لها ابنة وحيدة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عاما على الأكثر وتدعى «خوانا» كانت الفتاة قليلة الحياء بعض الشئ ولا تنعم بحظ من الجمال، وفوق هذا عجفاء لذا استحقت بجدارة لقب «كاردوتشا»[٣٦] الذى أطلقوه عليها... حين شاهدت الفتاة الغجر يرقصون عشقت أندريس وجن جنونها به، زين لها الشيطان ضرورة الانفراد به للإفصاح عما يعتمل بصدرها من أشواق ولطلب الزواج منه، إذ كانت تنوى المضى قدما فى تنفيذ رغبتها رغم أنف أهلها، وهكذا انتهزت فرصة دخوله الحظيرة لإحضار جحشين منها وتسللت خلفه لتعرض عليه دون مقدمات ـ خوفا من اقتحام أحد خلوتهما ـ ما يلى:

أندريس (نادته باسمه مجردا) أنا آنسة غنية، وحيدة أمى التى تمتلك هذا الخان فضلا عن مزارع عديدة من الكروم وبيتين أخرين، أرغب فى الزواج منك لووافقت و أريد الرد حالا إن تيسر، أما إذا

كان حياؤك يمنعك الآن من التصريح بالموافقة فإننى سأعتبر اختيارك للبقاء وعدم الرحيل بمثابة موافقة ضمنية ، وثق تماما أنك لن تندم طيلة حياتك على اتخاذك مثل هذا القرار الإيجابى.

بُهت أندريس من جرأة الفتاة ورعونتها، وفضّل الإجابة عليها بالسرعة التى تنشدها:

- أنا ، أيتها الفتاة، عازف عن الزواج، وحتى لو لم أكن كذلك فنحن معاشر الغجر لا نتزاوج إلا فيما بيننا، أما المعروف الذى تتفضلين به علىّ ولا أستحقه فلا أملك حياله سوى التوجه إلى الله بالدعاء لكى يجزلك عظيم ثوابه.

صعقتها إجابة أندريس وكانت على وشك الرد عليه لو لم تدخل عليهما الحظيرة طائفة من الغجريات، انسحبت وهى تشتاط غضباً وفى نيتها الإنتقام للإهانة.

أملت الحكمة على أندريس ضرورة الفرار على جناح السرعة وحثّ جن سليمان على حمله إلى أرض غير الأرض لأنه قرأ فى عينىّ «كاردوتشا» عزمها على تسليم نفسها له حتى بدون عقد زواج، ومن ثم فقد أزمع ترك ساحة النزال والنكوس على عقبيه موليًا الأدبار.. طلب من قومه فى تلك الليلة ضرورة مغادرة المكان، فلم يعصوا له - كالعادة - أمرا وعلى هذا استعدوا صبيحة اليوم التالى للرحيل بعد استردادهم للرهن الذى قدموه نظير إقامتهم بتلك القرية المشئومة.

ولما أبصرت «كاردوتشا» أحلامها تتهاوى ورغباتها تتبخر برحيل أندريس قررت العمل على إبقائه بالقوة مادامت لم تستطع بالطرق

الودية، وهكذا استعانت بكل ما أسعفها به خيالها المريض وهدتها الحيلة إلى دس بعض حليها (خرز، دبابيس وخلخالين من الفضة) فى رحْل أندريس، لم يكد الغجر يغادرون الخان حتى زعقت بأعلى صوتها متهمة إياهم بسرقة أغراضها الشخصية، وعلى صراخها تجمع رجال العدالة وجميع من بالقرية من سكان.

أمسك الغجر عن السير، وأقسموا جهد إيمانهم بالبراءة وطهارة اليد، كما أعربوا عن استعدادهم لتفتيش رحالهم وكافة متعلقات المخيم، اغتمت الغجرية العجوز لخوفها من أن تظهر عملية التفتيش حاجيات بريثيوثا الخاصة وملابس أندريس وقد اجتهدت فى إخفائهما عن كافة العيون.. كانت «كاردوتشا» تنتظر متوثبة ، وعندما وصلوا إلى الرحْل الثانى طلبت من المفتشين السؤال عن صاحبه لأنها رأت مرتين ذلك الراقص الرشيق يتسلل خارجا من غرفتها ومن المحتمل أن يكون هو الفاعل، عندما أدرك أندريس أنها تقصده ضحك قائلا:

- أيتها الآنسة الموقرة ، هذا هو رحْلى وهذا حمارى ، لو عثرت على ما ينقصك سأعوضك بسبعة أمثاله نقدا وسأتقبل بصدر رحب العقوبة التى يوجبها القانون على اللصوص.

قلب مسئولو العدالة رحْل أندريس ، وما هى إلا لحظات حتى عثروا على المسروقات، ألجمت الدهشة لسان أندريس وبدا مثل تمثال من الحجارة الصماء.

- ألم تكن شكوكى فى محلها؟ - قالت كاردوتشا فى نبرة تهكم -

من كان يظن أن هذا الوجه البرىء يخفى وراءه لصا مخضرما!

انبرى العمدة - الذى كان حاضرا - فى سب أندريس وبقية الغجر بأقذع الشتائم ونعتهم باللصوصية وقطع الطريق، لم يكن أندريس قد أفاق بعد من دهشته، وظل مطرقا يفكر دون أن يفطن إلى الخديعة ، تقدم ابن أخت العمدة - وهو شرطى عبوس متين البنيان - ليدلى بدلوه هو الآخر ، قال:

- ألا ترون ما حل بهذا الزنيم حين بانت فعلته الكريهة ومع أننا ضبطناه متلبسا أراهن على أنه لن يتورع عن الحلف بأغلظ الإيمان نافيا التهمة عن نفسه، ما خلق هؤلاء إلا للعمل على مجاديف السفن، أليس من الأفضل لمثل هذا الوغد الخدمة على سفن صاحب الجلالة بدلا من التسكع بالرقص وممارسة هوايته فى النشل هنا وهناك، إن شرف الجندية يحتم على أن أصفعه صفعة تكوِّمه تحت قدمى.

قال ذلك ثم رفع - دون مقدمات - كفه الضخم وهوى به على وجه أندريس الذى أعادته اللطمة من شروده وجعلته يتذكر أنه «دون خوان» الفارس المقدام، لا ذلك الغجرى المدعو «أندريس كابابيرو» ، هجم حانقًا على الشرطى، وفى طرفة عين امتدت يده لتستل سيف غريمه من غمده وتطعنه به طعنة أسقطته على الأرض ميتًا.

حدث هرج ومرج شديدان: تكهرب العمدة (خال القتيل) ، سقطت پريثيوثا مغشيًا عليها وأربكت بإغمائها حبيبها، أخرج الناس أسلحتهم وطاردوا القاتل... زادت البلبلة، تعالى الصياح، ولانشغال أندريس بپريثيوثا أهمل الدفاع عن نفسه، وشاء حظه العاثر ألا

يكون كليمنتى حاضراً لأنه كان قد سبقهم إلى الخروج ومعه بعض الحاجيات.. تكاثر المتحمسون على أندريس المرتبك وأوقعوا به فى النهاية وقيدوه بسلسلتين غليظتين، لو لم تكن القرية واقعة فى دائرة مرسية القضائية لأشفى العمدة غليله وشنق القاتل بيديه، لكنهم لم يحملوه إلى مرسية فى اليوم نفسه بل فى اليوم التالى، وخلال تلك الفترة التى ظل فيها محجوزاً بالقرية ذاق - على يد العمدة المتوثب وزبانيته وكافة السكان - شتى صنوف التعذيب والإهانات.. قبض العمدة على من طالته يده من الغجر بينما تمكن آخرون (من بينهم كليمنتى الذى خاف من افتضاح أمره لوأمسكوا به) من الفرار بجلودهم..

فى اليوم التالى، وفى حراسة العمدة ومساعديه ومتطوعين مسلحين، اتجهت إلى مدينة مرسية قافلة[٣٧] تضم المقبوض عليهم من الغجر تتوسطهم پريثيوثا وأندريس الذى كان ممتطياً حماراً ومطوقاً بالأغلال والسلاسل ، خرجت المدينة عن بكرة أبيها لرؤية السجناء بعدما وصلها خبر جريمتهم ، ولم يشاهد فرد فيها جمال پريثيوثا إلا ولهج بالثناء على قدرة الخالق وبديع صنعه... دفع الفضول امرأة القاضى لرؤية الفتاة التى يسبح الناس بحمد جمالها، ومن ثم فقد طلبت من زوجها عدم الزج بها فى السجن مع الآخرين وإحضارها إلى بيته... حبسوا أندريس فى زنزانة ضيقة مظلمة تصور أنه لن يخرج منها إلا إلى مثواه الأخير فى لحد تحت الأرض ، حملوا پريثيوثا وجدتها إلى امرأة القاضى التى استقبلت الفتاة بقولها:

- لديهم كل الحق فى الإشادة بهذا الجمال الرائع.

احتضنتها زوجة القاضى وظلت تحدق فيها لفترة طويلة، ثم التفتت إلى جدتها وسألتها عن عمرها:

- خمسة عشر عاماً - أجابت العجوز - قد تزيد شهرين أو تنقص مثلهما.

- إنه عمر ابنتى كوستانثا لو كانت على قيد الحياة، أى، صديقاتى! لقد أثارت هذه الفتاة شجونى وجددت أحزانى - قالت زوجة القاضى.

أخذت بريثيوثا يديها وغمرتهما بالقبلات راجية متوسلة:

- سيدتى الفاضلة، الغجرى السجين لا ذنب له، الآخر هو الذى استثاره : ناداه باللص وهو ليس كذلك، صفعه على وجهه فتحركت نخوته ولم يتمالك نفسه، استحلفك بالله يا سيدتى أن تطلبى من القاضى تأجيل محاكمته وعقابه، إذا كان لجمالى شفاعة عندك لا تجعليه يعجل بالخلاص منه لأن حياتى مرتبطة بحياته، كان سيصبح زوجى لولا بعض العوائق التى منعتنا حتى الآن من تتويج تعاهدنا بالزواج، لاشك أنك تعرفين ، يا سيدتى، معنى الحب ولوعة الفراق، فأنت زوجة وكنت خطيبة، ولذا ستأخذك الشفقة بى لو عرفت أننى أحب السجين حباً طاهراً عفيفاً.

كانت بريثيوثا تقول لها هذا وهى متشبثة بيديها ، تحملق فيها والدموع تنساب بغزارة من مقلتيها ، ولم تكن امرأة القاضى أقل منها تشبثاً وتحديقاً ودموعاً، فوجئ القاضى عند دخوله عليها بهذا

المشهد الحزين الباكى وبجمال الغجرية الصارخ فاعترته الدهشة، سأل عن سر هذه المناحة، فما كان من بريثيوثا إلا أن تركت يدى امرأته لتمسك بقدميه وهى تقوله له:

- الرحمة يا سيدى الرحمة ! لو مات الغجرى ستقبض روحى معه إلى بارئها ، إنه برئ ، أنا المذنبة، وإذا لم تستطع محاكمتى بدلا منه فلترجئ النظر فى قضيته لعل السماء تأتى بالفرج وتتمكن من الاهتداء إلى الوسائل الناجعة لتربئته.

تجددت دهشة القاضى من جراء كلامها الرشيد الموجع، ولو لم يتمالك نفسه لاعتراه الضعف وشاطرها البكاء، كانت الغجرية العجوز مطرقة الرأس، تناوشها الأفكار ، وبعد كثير من إعمال الفكر والتدبر خرجت من صمتها المطبق بقولها:

- على رسلكم أيها السادة ، فلربما كان بوسعى - رغم احتمال خطورته على حياتى - تحويل هذا البكاء المر إلى بهجة وسعادة.

خرجت متعجلة وتركت الحاضرين مشوشين، يضربون أخماسًا فى أسداس، لم تكف بريثيوثا عن البكاء والتوسل بإرجاء محاكمة أندريس، وفى نيتها إبلاغ والده بما حدث واستعجال قدومه .. عادت العجوز وهى تتأبط صندوقًا صغيراً وطلبت الانفراد بالقاضى وزوجته لاطلاعهما على سر خطير، ظن القاضى أنها تريد الكشف عن بعض المسروقات التى تفيد فى نظر قضية السجين، وما إن خلت بهما العجوز فى غرفة مستقلة حتى جثت على ركبتيها أمامهما وقالت:

ـ إذا لم يكن السر الذى أبوح به الآن يستحق إعفائى من الجرم الذى اقترفته ذات يوم فأنا على أتم الاستعداد لقبول العقوبة التى ترونها، لكن قبل هذا ، ألا يمكنكما التعرف على محتويات هذا الصندوق؟

وضعت الصندوق الخاص ببريثيوثا بين يدى القاضى ، وعندما قام بفتحه لم يجد سوى بعض الحلى الصغيرة التى تخص البنات حديثات العهد بالولادة. لم يفطن إلى العلاقة بين محتوياته وبين السر الذى تتحدث عنه، نظرت إليها زوجته ولم تدرك هى الأخرى ما وراءها من أسرار، ولذا لم تعلق على ما رأته بأكثر من الآتى:

ـ إنها تخص طفلة صغيرة.

ـ أنا حقا كذلك يا سيدتى ـ ردت العجوز ـ لكن عن أية طفلة تتحدث هذه الورقة المطوية؟

تناولها القاضى بسرعة وقرأ ما يلى:

اسم الطفلة: دونيا كوستانثا دى أثبيدو إى دى مينيثيث. الأم: دونيا جيومار دى مينيثيث . الأب: دون فرناندو دى أثبيدو، فارس أخوية قلعة رياح، اختفت الطفلة من بيت أبويها ومعها صندوق حليها يوم صعود الرب، فى الثامنة صباحًا ، عام ألف وخمسمائة خمس وتسعين».

تعرفت امرأة القاضى ـ فور سماعها للمدون فى الورقة ـ على الحلىّ الصغيرة. رفعتها عندئذ إلى فمها وراحت تقبلها آلاف المرات، ثم سقطت على الأرض مغشيا عليها، خف القاضى لنجدتها ونسى

سؤال الغجرية عن ابنته، وعندما ثابت الزوجة إلى رشدها سألت:

- أيتها المرأة الطيبة والملاك الهابط من السماء، أين صاحبة هذه الحلى؟

- أين ستكون يا سيدتى؟ - ردت الغجرية - إنها هنا، فى بيتكم: الغجرية الصغيرة التى انتزعت منكم الدموع هى صاحبة الحلى وابنتكم دون أدنى شك، لقد سرقتها من بيتكم فى مدريد فى التاريخ الموضح بالورقة.

حين سمعت هذه السيدة المضطربة المشوشة قفزت حافية إلى الصالة حيث تركت پريثيوثا فوجدتها محاطة بوصيفات البيت وخادماته، مازالت تبكى، اقتربت منها، ودون أن تنطق بكلمة كشفت - فى لهفة - عن صدرها وبحثت تحت نهدها الأيسر عن علامة صغيرة، على شكل شامة بيضاء كانت مولودة بها، فوجدتها فى مكانها كبيرة ومنبسطة بفعل مرور الزمن، قامت بعد ذلك - وباللهفة نفسها - بخلع الفردة اليمنى من حذائها فكشفت عن قدم من الثلج والعاج ورأت فيه ما كانت تبحث عنه: لحمة تصل بين الإبهام والسبابة كانوا قد تركوها هكذا، دون إزالة ، حرصاً منهم على عدم إيلامها بجراحة فى تلك السن الصغيرة... من توافر كل هذا الأدلة (الشامة، اللحمة، الحلى الصغيرة، اعتراف الغجرية، الورقة التى تشير إلى تاريخ سرقتها، وفوق هذا وذاك الإحساس بالفرع والنشوة عند رؤيتها) وقر فى قلب امرأة القاضى وعقلها أن پريثيوثا هى ابنتها دون شك، وهكذا قامت على الفور باحتضانها والعودة بها إلى حيث ينتظر

القاضى والغجرية العجوز.

مشت بريثيوثا مع امرأة القاضى ذاهلة: من التفتيش الغريب الذى خضعت له، ومن تأبطها لذراعها، ومن غمرها بآلاف القبلات، وصلت «دونيا جيومار» بالحمولة الرائعة الجميلة إلى زوجها وألقتها بين ذراعيه قائلة:

- استلم ابنتك «كوستانثا» إنها هى ، لا جدال، لا يخامرنى أدنى شك فى تلك الحقيقة لأننى شاهدت الإصبعين الملتصقين وشامة الصدر ، ناهيك عما تحدثنى به نفسى منذ اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها.

- لا أشك فى هذا - أجاب القاضى وبريثيوثا بين ذراعيه - فقد خامرنى الإحساس نفسه، لكن كيف يمكن للعديد من البراهين والأدلة القطعية الاجتماع فى وقت واحد، ألا يعتبر هذا من قبيل المعجزات ؟

أُشكل على جميع أهل الدار وطفقوا يسألون بعضهم البعض عن حقيقة ما يجرى حولهم، لكن تفسيراتهم كانت جميعها طائشة ومجافية للصواب، أكان باستطاعة أحد تصور أن تلك الغجرية الباكية ما هى إلا ابنة صاحبى الدار؟!

طلب القاضى من امرأته وابنته والغجرية العجوز كتمان السر حتى يتولى هو الكشف عنه ، كما هدأ من روع العجوز وأخبرها بتغاضيه عن الضر العميم الذى ألحقته به نتيجة لسرقتها حشاشة قلبه، لأنه

وإن كان بالغًا إلا أن الفرحة بعودتها إليه قد تعدله، لكنه وبخها

على تزويجها من غجرى لص وقاتل وهى تعلم طيب منبتها وعراقة أصلها.

- آه يا سيدى - قالت بريثيوثا - ما هو بلص ولا غجرى، وإن كان قاتلا فلأن الآخر هو الذى اعتدى على شرفه ودفعه دفعًا لرد اعتباره.

- كيف لا يكون غجريًا، يا بنتى؟ - سألت «دونيا جيومار».

تصدت الغجرية العجوز للإجابة وروت بإيجاز حكاية «أندريس كابابيرو» وقالت إن اسمه الحقيقى «دون خوان دى كاركامو» ، ابن «دون فرانثيسكودى كاركامو»، وأنه مثل أبيه فارس فى أخوية «سنتياجو» المقدسة، وأنها مازالت تحتفظ بملابسه الأصلية، كما أشارت إلى الاتفاق المبرم بين بريثيوثا وبين «دون خوان» بشأن فترة الاختبار التى تمتد سنتين، وعلى ضوئها يقرران الزواج من عدمه، ولم تغفل إبراز عفة الاثنين وطهارتهما وسعة ثراء «دون خوان» وكرم أصله.

أثارت القصة دهشتهما مثلما أثارتها من قبل كيفية العثور على ابنتهما ، أمر القاضى العجوز بإحضار ملابس «دون خوان» خرجت ثم عادت بصحبة غجرى آخر يحمل الملابس.

فى الفترة التى قضتها العجوز بالخارج لإحضار الملابس تلقت بريثيوثا من والديها أسئلة لاتحصى ، كانت إجاباتها الفطنة الذكية كفيلة بأن تجعلهما يحبانها ويتعلقان بها حتى ولو لم يكتشفا أنها ابنتهما - سألاها - على سبيل المثال - عن شعورها تجاه «دون خوان» فقالت إنها تقدر فيه سلوكه الرشيد وتفانيه فى خدمتها وتحوله (على

ما فيه من إهانة لشخصه الكريم) إلى غجرى من أجل إرضائها، وبرغم كل هذا فإنها ستذعن ممتنة لإرادة والديها ولما يقررانه بشأنها.

- كفى يا بريثيوثا يا بنتى - قال أبوها - أريد أن تحتفظى بهذا الاسم تخليداً لذكرى فقدك والعثور عليك، ولن أدخر وسعًا من جهتى لتعويضك عما فاتك.

تنهدت بريثيوثا ، فأدركت أمها - بحسها الأنثوى - أنها تنهيدة حب لدون خوان، وعندئذ قالت لزوجها:

- إذا كان «دون خوان» سيداً من السادة ويحب ابنتنا بهذا الشكل ، فما المانع من تزويجها له؟

رد عليها القاضى بقوله:

- أتريدين أن نفقدها ثانية يوم عثورنا عليها؟ دعينا نستمتع بها لبعض الوقت، لو زوجناها الآن لن تكون لنا، بل لزوجها.

- معك الحق كله - قالت زوجته - لكن مُر - على الأقل - بإخراج «دون خوان» ، لابد أن المسكين يعانى داخل زنزانة كريهة.

- صدقت يا أماه - قالت بريثيوثا - فلن ينزلوا لصا قاتلا، وفوق هذا غجريا، إلا أحفر المنازل وأبشعها.

- سأذهب لرؤيته بحجة أخذ اعترافه - قال القاضى - وإياكم وإفشاء مضمون هذه القصة قبل أن آذن لكم.

عانق ابنته ثم ذهب إلى السجن، دخل بمفرده زنزانة «دون خوان» فوجده مقيد اليدين والرجلين بالسلاسل والأصفاد والطوق الحديدى

مازال جاثما حول رقبته... كانت الزنزانة مطبقة الظلام فأمر - حتى يراه - بفتح كوة عالية كانت بها، عندما شاهده على الضوء الخافت المتسلل من الكوة قال له:

- كيف حال الزنزانة الطيبة؟ لو حبست فيها الغجر الموجودين بأسبانيا لتخلصت منهم جميعا دون جهد أو عَنَت مثلما أراد «نيرون» أن يفعل بمدينة روما ، اعلم ، أيها اللص القاتل، أننى قاضى المدينة وقد أتيت لأعرف منك إذا كانت إحدى الغجريات التى قدمت معكم هى فعلا زوجتك.

حين سمع هذا أندريس ظن أن القاضى وقع فى غرام پريثيوثا، هذا لأن الغيرة كائن دقيق بإمكانه التسلل إلى بقية الأجساد دون تحطيمها ، والحلول بها دون تفتيتها ، ورغم هذا أجابه:

- لو قالت إنها زوجتى فهى صادقة، ولو قالت غير هذا فهى أيضا صادقة، فمن المستحيل أن يجرى الكذب على لسان پريثيوثا.

- أهى صادقة إلى هذا الحد؟ - سأل القاضى - أليس هذا بكثير على غجرية مثلها؟ حسنا ، أيها الفتى، لقد أخبرتنى أنها زوجتك لكنها لم تعطك يدها، ولذا طلبت منى إتمام زواجكما بعدما أيقنت أنك ستموت عقابا على جريمتك ، يبدو أنها تريد أن تنعم بشرف الترمل من لص كبير مثلك.

- أتوسل إليك أن تلبى رغبتها ، فلو تزوجتها سأرحل سعيدا إلى العالم الآخر.

- أتحبها كثيرا؟

ـ نعم ـ أجاب السجين ـ وإن كانت كلمة كثيرا لا تفي بالمعنى هنا، حقا ، أيها القاضى ، إن نهايتى غدت وشيكة، لقد قتلت ذلك الشرطى الذى اعتدى على شرفى، ولا أنكر هيامى بتلك الغجرية، ولذا سأموت راضياً مسروراً لو فارقت الحياة ونحن موثقون برباط الزواج المقدس الذى ستباركه السماء دون شك، لأن كلينا حافظ بعفة وطهارة واخلاص على ما سبق وتعاهدنا عليه.

ـ سأجعلهم ـ قال القاضى ـ يحضرونك هذه الليلة إلى بيتى لأزوجك، وغدا فى منتصف النهار ستكون معلقا فى حبل المشنقة ، وبهذا الشكل أكون قد أوفيت للعدالة حقها ونفذت ـ فى الوقت نفسه ـ رغبتكما.

ـ شكره أندريس ـ وعاد القاضى إلى بيته ليخبر زوجته بما فعله مع السجين وبأشياء أخرى ينوى إخراجها إلى حيز التنفيذ.

روت بريثيوثا لأمها ـ خلال الوقت الذى تغيبه القاضى ـ تفاصيل كثيرة عن حياتها السابقة، وكيف أنها ظلت تعتقد طوال تلك السنوات أنها غجرية وحفيدة للعجوز، وأنها رغم هذا كانت حريصة على تغيير الصورة الكريهة التى يختزنها الناس فى مخيلتهم عن الغجر.

سألتها والدتها إذا كانت تحب فعلا «خوان دى كاركامو» أجابتها ـ خجلة، مطرقة الرأس ـ إن اهتمامها بتحسين وضعها الاجتماعى والمعيشى بالزواج من فارس حسيب نسيب مثل دون خوان جعلها تنظر إليه بعين الرضا، خاصة بعد التجربة التى أثبتت لها حسن شمائله وعفته فى التعامل، ومع هذا فلم تتعارض إرادتها بأى حال ـ

كما سبق وأعلنت - مع إرادة والديها، وإنها ستقبل راضية ما يقررانه بشأنها.

حل المساء ، وفى حوالى العاشرة أخرجوا أندرس من السجن بعد أن نزعوا الطوق الحديدى من على رقبته، وإن كانوا قد تركوا سلسلة كبيرة تبدأ من رجليه وتلتف حول جسده بأكمله، وصل على هذه الصورة - دون أن يراه أحد سوى الذين أحضروه - إلى دار القاضى حيث أدخلوه فى هدوء وحذر إحدى الغرف ثم تركوه فيها وحيدا وانصرفوا ، دخل بعدهم بفترة وجيزة قسيس وطلب منه الاعتراف لأنه سيلقى حتفه فى اليوم التالى ، رد عليه أندريس:

- سأعترف عن طيب خاطر ، لماذا لا تزوجوننى أولا فأنا - وأأسفاه - لن أنعم مثل بقية الأزواج بليلة دخلتى.

نصحت «دونيا جيومار» زوجها بعدم التمادى فى ترويعه حتى لا يودى الفزع بحياته، عمل القاضى بمشورتها ودخل على القسيس ليطلب منه عقد قران السجين على بريثيوثا أولا ثم يتلقى اعترافه بعد ذلك، كما أوصاه بالدعاء الخالص له لأن رحمة الله واسعة وفى كثير من الأحيان تغمر بفيضها العباد فى أوقات اليأس والقنوط التى جف فيها نبع الأمل.

خرج أندريس إلى الصالة حيث ينتظر القاضى وزوجته وبريثيوثا وخادمان آخران من العاملين بالبيت... حين رأته بريثيوثا مطوقًا بالسلسلة الضخمة، شاحب الوجه وعلى عينيه آثار الدموع، وضعت يدها على قلبها وألقت بنفسها بين ذراعى أمها التى كانت واقفة إلى

جوارها، احتضنتها الأم وقالت لها:

عودى إلى رشدك يا صبية، لا تنزعجى لأن ما ترينه سيتساقط عليك فى النهاية رطبًا جنيًا.

لم تجد العزاء والسلوى فى كلمات أمها لجهلها بمغزاها .. كانت الغجرية العجوز مشوشة مضطربة، وباقى الحاضرون ينتظر على أحر من الجمر ما سيسفر عنه هذا المشهد الرهيب.

فدخل القاضى قائلا:

نيافة الضابط القسيس، هذا الغجرى وهذه الغجرية هما اللذان ستتولى عقد قرانهما.

- لا يمكننى القيام بهذا العمل ما لم تستوف الإجراءات الضرورية لذلك، فأين إعلان الكنيسة برغبتهما فى الزواج؟ وأين تصريح رئيسى بعقد القران؟

- لقد فاتنى هذا - أجاب القاضى - لكنى أعدك بأن أجعل القاضى الكنسى يزودك فيما بعد بالمستندات اللازمة.

-- قبل رؤيتها لا يمكننى عمل شئ - رد القسيس الضابط - ومن ثم ليأذن لى السادة الحضور بالانصراف.

ودون إضافة كلمة أخرى، حتى لا تحدث فضيحة، خرج من الدار لا يلوى على شئ وتركهم فى حيص بيص..

- خيرا فعل أبونا - قال القاضى - ربما شاءت العناية الإلهية إطالة فترة تعذيب أندريس لأن الإعلان عدة مرات فى الكنيسة عن رغبة شخصين فى الزواج يتطلب وقتا ليس بالقصير، وطول الوقت

يتمخض عادة عن نهاية سعيدة للأحداث المريرة، لكن ما يهمنى الآن هو معرفة أندريس على ما يلى: لو كان زواجه سيتم فى ظروف عادية دون مسلسل الرعب هذا، فهل كان سيسعد به أكثر لوكان «أندريس كابابيرو» أو «دون خوان دى كاركامو»؟

حين سمع أندريس اسمه الحقيقى رد قائلا:

- بما أن بريثيوثا قد تجاوزت حدود الصمت وكشفت عن هويتى، فلا مفر من الاعتراف بأننى سأكون فى كلتا الحالتين راضياً وسعيداً بقسمة السماء مادامت ستبلغنى منتهى أملى.

- لا يسعنى إزاء هذه الروح الأبية الشريفة - قال القاضى - إلا أنى أعدك يا «دون خوان دى كاركامو» بالزواج فى حينه من بريثيوثا، وأن أعلن عن قبولى بتسليمك الآن أغلى جوهرة فى حياتى، وعليك أن تقدرها حق قدرها لأننى أعطيك من خلالها «دونيا كوستانثا دى مينيثيث» ابنتى الوحيدة، فهى وإن كانت تعدلك فى الحب فإنها لا تقل عنك أصلا ولا نسبا.

دهش أندريس لما سمع، لكن «دونيا جيومار» قصت عليه بإيجاز حكاية ضياع ابنتها والعثور عليها، فضاعفت القصة من دهشته الممزوجة هذه المرة بالفرحة الغامرة .. عانق حمويه مخاطباً إياهما بوالدى وسادتى ثم قبل يد بريثيوثا وطلب - والدموع تنهمر من عينيه - موافقتها على الزواج منه.

انفرط السر، وخرج النبأ من الدار بخروج الخدم الذين شاهدوا ما جرى، عندما عرف العمدة - خال القتيل - أدرك أن جميع طرق

الانتقام قد سدت فى وجهه لأنه من غير المعقول التوجه إلى العدالة بطلب القصاص من صهر القاضى.

ارتدى «دون خوان» ملابسه الأصلية التى أحضرتها الغجرية، وتحول السجن والأغلال الحديدية إلى حرية وأساور ذهبية، كما تحول حزن الغجر السجناء إلى فرحة لأنهم استردوا - بكفالة - حريتهم فى اليوم التالى... تلقى خال القتيل وعدا بألفى دوكادوس مقابل تنازله عن الدعوى والعفو عن «دون خوان» . لم ينس الأخير فى غمرة الأحداث المتلاحقة زميله كليمنتى وأرسل فى طلبه ، لكنهم لم يعثروا له على أثر حتى جاءهم بعد أربعة خبر يفيد ركوبة من ميناء قرطاجنة سفينة من السفينتين المنطلقتين صوب إيطاليا.

قال القاضى لدون خوان إن خبرا مؤكدا وصله يفيد بتعيين والده قاضيا على مرسية ، وسيكون من الأفضل انتظاره للحصول على موافقته ومباركته لعقد القران.

رد عليه «دون خوان» قائلا إنه لا يستطيع الاعتراض على ما يراه أو عصيان أوامره، لكن تباريح الهوى أضنت فؤاده وجعلته لا يقوى على الانتظار.

استخرج القاضى تصريحا من الأسقف بعمل إعلان واحد فى الكنيسة عن الزواج بدلا من الإشهارات المتعددة المتعارف عليها... ولأن القاضى كان محبوبا جدا فى المدينة فقد وعده أهلها بإقامة احتفال ضخم يوم الزفاف يتضمن الصواريخ النارية ومصارعة الثيران والعديد من الألعاب مثل لعبة التحطيب، ظلت الغجرية العجوز

فى الدار لأنها لم ترد مفارقة حفيدتها پريثيوثا.

وصلت أخبار عقد قران الغجرية الصغيرة إلى العاصمة، وعندئذ أدرك «دون فرانثيسكو دى كاركامو» أن ابنه هو العريس وأن پريثيوثا الغجرية الجميلة هى العروس، غمرته الفرحة لأنه كان قد تصور ضياع ابنه لعدم ذهابه مع رفاقه إلى «فلاندس» ومن جهة أخرى فقد حمله الجمال الباهر للعروس ومكانة صهره المرموقة على الصفح عن الهفوة التى بدرت من ابنه... عجل بالرحيل لكى يرى فلذة كبده وزوجته، ولم تكد تمر عشرون يوما حتى كان فى مرسية، وبقدومه تجددت الأفراح وأقيم حفل الزفاف ، وامتدت المسامرات والحكايات، وعلى طريقتهم احتفل شعراء المدينة ـ التى تحفل بالعديد من المجيدين ـ بالحدث السعيد والفريد.

ومن بين هؤلاء نخص بالذكر «دل بوثو» [٣٨] الذى كتب قصيدة عصماء تخلد شهرة پريثيوثا أبد الدهر.

نسينا الإشارة إلى أن الابنة الولهانة لصاحبة الخان قد أماطت اللثام عن كيدها للغجرى أندريس،. واعترفت للعدالة بذنبها وهيامها الشديد الذى دفعها لاتهامه ظلما بالسرقة، لكنها لم تنل أية عقوبة على جريمتها لأن الفرحة الغامرة بالعثور على الزوجين السعيدين كانت قد طمست على شهوة الانتقام وأرخت العنان للرحمة والتسامح.

هوامش

(١) يقال إن «كاكو» هذا هو ابن Vulcano وهو شخصية أسطورية يضرب بها المثل فى الإجرام بشتى أنواعه: السرقة والنهب وقطع الطريق والقتل والتخريب... إلخ، وتقول الأسطورة إن زفيره كان نارا ولهبا خالصين

(٢) «بريثيوثا» Preciosa من الأسماء الأعلام التى تستخدم أيضا صفة، وتطلق فى الأسبانية على كل شيء جميل ونفيس .

(٣) يقع فضاء Santa Bárbara فى شمال مدريد بالقرب من البوابة المعروفة بهذا الاسم فى نهاية شارع Hortaleza. وفى تلك المنطقة كان يوجد دير «سانتا باربرا الذى تأسس عام ١٦١٢م ، وعلى أنقاض الدير والكنيسة أقيم بعد ذلك مصنع لصهر المعادن، وعندما اختفى المصنع تحولت المنطقة إلى حى سكنى.

(٤) صرح البابا «خوليو الثانى» عام ١٥١٠ بعيد «سانتا آنا» الذى يتم الاحتفال به فى السادس والعشرين من شهر يوليو، ولم تكن «سانتا آنا» قديسة المدينة وراعيتها فحسب، بل كانت كذلك بالنسبة للغجر المقيمين بالمناطق المحيطة بها.

(٥)كنيسة «سانتا ماريا» من الكنائس القديمة جدا فى مدريد، وتقع فى نهاية شارع «ألمودينا» وكانت فى ذلك العصر المكان المفضل لإقامة الاحتفالات الدينية والمناسبات السياسية الهامة، ويذكر أن الإمبراطور فيليب الثانى توجه ـ عند دخوله مدريد فى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٥٦٩م ـ لأداء القداس فى هذه الكنيسة بصحبة الكاردينال «إسبينوسا» وكانت

مناسبة احتفالية ضخمة حضرها البارزون من رجال الكهنوت علاوة على الشخصيات الهامة فى الإمبراطورية .

(٦) «أرجوس» Argos شخصية أسطورية ترى فى جميع الاتجاهات، ويقال إنها كانت مزودة بمائة عين.

(٧) الفلوس (مفردها : فلس) : عملة نحاسية قديمة.

(٨) «جانيميدس» Ganimedes: أمير طروادى (من طروادة) يتفوق بجماله الفذ على سائر الكائنات البشرية .

(٩) فى النص الأصلى (الأسبانى) توجد كلمة «محمد» (صلى الله عليه وسلم) ، وقد آثرنا فى الترجمة استبدال دار الإسلام بها، لتفادى الزج باسم خاتم المرسلين فى سياق لا يليق بمكانته السامية.

(١٠) الرومانث الذى بين أيدينا حافل بالعديد من الرموز: «فلك الزهرة» يرمز إلى الأمير«دون فيليب» (المولود بمدينة بلد الوليد الثامن من (أبريل عام ١٦٠٥) و «شمس النمسا» يقصد بها «فيليب الثالث» و«الصبح الندى» يرمز إلى الأميرة «دونيا آنا» (المولودة ببلد الوليد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠١) و«مارجريتا» هى «مارجريتا النمساوية» زوجة فيليب الثالث وابنة الأرشيدوق «دون كارلوس» ، أما «جوبيتر» فيقصد به «دوق ليرما» ...إلخ.

(١١) من سمات اللهجة المحلية لسكان «أندلوثيا» (جنوب أسبانيا) نطق حرف «السين» «ثاء» و«الثاء» «سينا» وهذه الخاصية اللغوية متأصلة وغير مصطنعة فى أهل الجنوب، لكنها ليست كذلك عند الغجر (كما يفهم من إشارة المؤلف).

(١٢) إذا جاءت كلمة بريثيوثا تالية(نعتا) لكملة حجر فإنهما يعنيان «الأحجار الكريمة» .

(١٣) «الباسيليسكو» Basilisco : أفعوان خرافي يقتل بمجرد النظر.

(١٤) «منثنارس» Manzanares : النهر الوحيد الذى يمر بالعاصمة مدريد، وقد وصفه المؤلف بالتواضع لقلة المياه التى تجرى به، والشعر الأسبانى - لاسيما فى العصر الذهبى - حافل بالعديد من القصائد التى تسخر من النهر وتتهكم من ندرة مياهه.

(١٥) الطواشي: العبد الخصي الذي يلازم النساء عند خروجهن من البيت، ويتولى خدمتهن بداخله.

(١٦) المرابطى: مسكوكة عربية قديمة كانت متداولة فى عهد المرابطين خلال وجودهم بالأندلس.

(١٧) الكشتبان: قمع الخياط .

(١٨) الكلمة الموجودة فى النص الأصلى Garrama غرامة (وهى كلمة عربية كما نرى) ، وكانت تستخدم فى عصر المؤلف للإشارة إلى الجزية التى يدفعها المسلمون لأمرائهم المسيحيين (وسبحان مغير الأحوال!).

(١٩) يشير الكاتب هنا إلى حروب «فلاندس» الطويلة التى جرت وقائعها بين عامى ١٥٦٧ و١٦٥٩.

(٢٠) «دبلون» Doblón: دوقية (مسكوكة ذهبية) تحمل نقوشًا على كلا وجهيها، وكانت تسك فى عصر الملكين الكاثوليكيين، وظل يسكها بعدهما فى القرن السادس عشر الميلادى كل من الإمبراطور كارلوس الأول، وفيليب الثانى.

(٢١) جباتشوGabacho: لقب تحقيرى للفرنسيين الذين يسكنون بعض القرى الموجودة فى جبال البرانس.

(٢٢) «كابايرو» Caballero، تعنى فارس، ولا يقتصر معنى الفروسية فيها على الصفة الحربية بل يمتد إلى كل ما هو جميل من الأخلاق والشمائل مثل

الرجولة والمروءة والنبل والترفع عن الدنيا.. إلخ . ومن هنا تكمن المفارقة فى خلع المؤلف لهذا اللقب على من سيكون غجريا أو الإشارة إلى أن بعض الغجر يتلقبون به.

(٢٣) «خوانيكو» تصغير للاسم العلم Juan خوان .

(٢٤) Gambon, Onez كانتا إمارتين فى «بيتكايا» وظلتا لفترة طويلة منفصلتين عنها، وعندما تولى الملك إنريكى الرابع الحكم عهد بمهمة ضمهما إلى مملكته إلى «دون بدرو فرناندث دى بلاسكو» (كونتHaro) .

(٢٥) لجأت العجوز وحفيدتها (المزعومة) إلى التورية والتعمية فى حديثهما حتى لا يفتضح سرهما، وقد تحقق لهما ما أراداه حسبما يتضح من التعليقات للحاضرين والتى تنم عن الجهل التام بالمغزى الحقيقى للحوار بين الغجريتين.

(٢٦) فى زمن المؤلف (وفى العصور السابقة واللاحقة أيضًا) كانت تُحصَّل على بوابات المدن - خاصة الكبيرة - رسوم دخول على البضائع والأفراد، كما كان يتم فى بعض الأحيان تحصيل رسم مغادرة كذلك.

(٢٧) الجداجد (جمع جدجد) : صراصير تطير فى الظلام.

(٢٨) Las garruchas: التعذيب بـ الجارُّوتشا يتمثل فى تعليق الشخص من رجليه مع وضع أحمال ثقيلة على ظهره وساقيه.

(٢٩) Potro: آلة تعذيب خشبية على شكل مهر.

(٣٠) ميركوريو Mercurio: هو رسول الآلهة فى الأساطير الإغريقية أو الملك المكلف بحمل الأرواح إلى أعلى عليين.

(٣١) چوبيتر Júpitere: من أهم الآلهة اللاتينية ، ويتولى شأن التصرف فى الظواهر المناخية مثل الضوء والأشعة والرعود والأمطار..إلخ.

(٣٢) إستخيا Estigia: فى التراث الغربى نبع سام يتدفق من صخرة

وتتوارى مياهه بسرعة تحت الأرض. ويقال إن درجة تركيز السم به تصل إلى حد صهر المعادن والخزف، وإنه فرع نهر فى الجحيم.

(٣٣) يقع هذا المكان بين مدينتى «شلمنقة» و«نيودادريال»، وقد أطلقت عليه هذه التسمية عام ١٤٩٠م عندما عثر فيه على تمثال مهيب للعذراء Nuestra Senora ، وقد أقيمت كنيسة فى موضع اكتشاف التمثال ثم ألحق بها بعد ذلك دير للرهبان من طائفة «الدومينيكان» .

(٣٤) يبدو أن أندريس ليس متأكدا من المسافة التى تفصله عن «بينيا دى فرنسا» فهو يقول هنا إنها حوالى عشرين فرسخًا بينما صرح قبلها أنها تزيد عن الثلاثين .

(٣٥) تحقق النقاد والمؤرخون من شخصية «تريجيوس » هذا، وأثبتوا أنه كان يعيش فعلاً فى مدينة إشبيلية ويمارس صنعته المذكورة بها عام ١٥٩٩م.

(٣٦) «كاردوتشا» Carducha تعنى ممشطة أو مندفة من الحديد.

(٣٧) قافلة Cáfila من المفردات العربية التى احتفظت بها اللغة الأسبانية، وقد استخدم الكاتب الكثير من هذه المفردات فى جميع أعماله مما يشير إلى ذيوعها فى عصره، ولذا نوجه عناية الدارسين إلى أهمية هذه الظاهرة فى مؤلفات كاتب كبير مثل ثربانتس.

(٣٨) أثبت النقاد وجود هذا الشاعر (فرانثيسكو دل بوثو) فى مدينة مرسية خلال عصر ثربانتس، إذ ذكر أحدهم أنه قام فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٠٢م بإجازة أحد الأعمال المسرحية للكاتب «لوبى دى بيجا».

المترجم فى سطور

* على عبد الرءوف على البمبى (أستاذ فقه اللغة الأسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر).
* حاصل على الدكتوراه فى فقه اللغة الأسبانية وآدابها من جامعة SALAMANCA (أسبانيا) فى ١٩٨٧.
* له العديد من الأبحاث (باللغة الأسبانية والعربية) والمؤلفات العلمية والترجمات المنشورة فى مصر وبلدان عربية أخرى.
* شارك فى العديد من المؤتمرات، وناقش الكثير من الرسائل الجامعية، وهو مُحكم فى اللجنة العلمية الدائمة المنوطة بترقية أعضاء هيئة تدريس اللغة الأسبانية وآدابها.

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

68- ليلـة الكـــروان وقصص اخرى

تأليف : جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم : شوقى فهيم

69- مدخل إلى التفكيك

تـأليف : ميـشل رايان ، جونـاثان كـلر ريتـشارد رورتى ، كريستوفر نوريس

تحرير وترجمة : حسام نايل

70- السوريالية .. فى عيون المرايا

ترجمة وإعداد : أميـن صالــح

71- هل أنت شيوعى يا مستر شابلن ؟

ترجمة وتحرير : د . رمسيس عوض

72- مؤلفو الروايات الكاذبة (وقصص أخرى)

اختيار وترجمة : د . أحمد هلال يس

73- آخر جرعة فى هذه الكأس

ترجمة وتقديم : أ.د . محمد نور الدين عبد المنعم

74- الزهرة الأخيرة (وقصص أخرى)

ترجمة : الحسين خضيرى

75- حديقـة النبـى

ترجمة : كمال زاخر لطيف

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراففيتلى سابقاً)

سلسلة
آفاق عالمية

فى عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة «ثربانتس» الأخرى بعد دون كيخوته ـ التى تحمل عنوان: «قصص مثالية»، وفى مقدمتها يعلن أنه أول من ألف قصصًا فى اللغة الإسبانية، لأن الموجود منها قبله كان: إما مترجمًا أو نابعًا من التراث الفولكلورى أو مستقى من الأدب الإيطالى. «أما هذه»، يقول ثربانتس: "فتخصنى وحدى وليست مقلدة أو مستعارة، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى وشبت بين ذراعى خيالى".

إعلان «ثربانتس» هذا ليس من قبيل الادعاء ولا يجافى الحقيقة، و«الغجرية» هى القصة الأولى فى قصص «ثربانتس» المثالية التى جعلت أحد نقاد عصره يطلق عليه لقب: «بوكاشيو الإسبانى».

الغلاف: أحمد اللباد

وزارة الثقافة




www.gocp.gov.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.qatrelnada.com.eg